النبي يُسأل والقرآن يُجيب

أصول ومبادئ الإسلام

أحمد عطية الأترجي

ⓒ دار كليوباترا للنشر والتوزيع

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
عطيه/ الأترجي
النبي يسُأل والقرآن يجيب./ أحمد عطية الأترجي
ط١. / القاهرة : دار كليوباترا للنشر والتوزيع.
ص ١٧٨، ٢٠X١٤ سم
ردمك : ٩-٥٢-٦٦١٩-٩٧٧-٩٧٨
مبادئ وأصول دين
أ. العنوان
رقم الإيداع ٢٠١٧/١٠٢٤٢

الناشر دار كليوباترا للنشر والتوزيع

إشراف عام: عفاف محمد على
المدير التنفذي: ضحى جبر
تصميم الغلاف: شريف طه
عمليات الإخراج الداخلى والتصحيح اللغوي
دار كليوباترا للنشر والتوزيع
المراسلات:
للاتصال: / ٠١٠١٩٩٨٣٣٧١ / ٠١١٢٥٥٧٤١٢٩
dar.cleopatra@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل .. ومن يخالف ذلك يتعرض للمسائلة القانونية

إهـــــداء

إلى روح خالي الراحل رمضان توفيق - رحمه الله

وروح جدتي الغالية - أسكنها الله فسيح جناته

وعمي محمد عبد المحسن - حفظه الله

ووالدى ووالدتي بارك الله في عمرهما وحفظهما ورعاهما

وشريكة حياتي زوجتي الحبيبة

وابنتي رقية - وابني مالك

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله.. والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد،،،

فقد ورد لفظ "يسألونك" في القرآن الكريم نحو خمسة عشر مرة، وجهت خلالها أسئلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءت في أوقات ومواقف مختلفة، إلا أن الإجابة جاءت من عند الخالق تبارك وتعالى ونزلت بها آيات بينات، ولأن السؤال يتطلب وجود سائلا ومسئولا عنه، أما السائل فقد جاء في أغلب الآيات أنهم الصحابة يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور دينهم ودنياهم.
وعادة ما كان السؤال يأتي من اليهود أو الكفار عن أشياء هم في حاجة إلى فهمها، أو أنهم يريدون تعجيز الرسول وإظهاره بمظهر عدم العارف ليضعفوا من شخصيته ومهابته، أما المسئول عنه وهو موضوع السؤال المطروح فتمثل في سؤالهم عن الأهلة والمحيض والأنفال واليتامى وغيرها، وأخيرا الرد على السؤال، وهنا تولى الله سبحانه وتعالى الإجابة عنها شافية وافية لكل ما يتعلق بموضوع السؤال في قرآن يتلى إلى قيام الساعة.
وكانت كل إجابة لأي سؤال في ذلك الزمان تحتوي على ما يتسع العقل لإدراكه ساعة التشريع، أما بقية الإجابة فالحق يتركها للزمن، ولا يعطينا إلا ما يفيد التشريع.

فهذا سؤال للكفار عن حقيقة الروح تعجيزا ومكابرة، وتأتى الإجابة بأن أسرارها وحقيقتها مما استأثر الله بعلمه لا يعلم ذلك إلا الله وحده، وآخر عن مصير الجبال، فيعث الله لنبيه أن أجبهم بأن الله سوف يصيرها هباء منبثا ويزيلها من على وجه الأرض، وثالث عن قصة الملك الصالح ذي القرنين، فينزل الوحى على رسول الله، فأجبهم بأنك ستخبرهم عنه بخبر صحيح يكون عبرة وعظة لهم.
والملاحظ في هذه الأسئلة التي وجهت إلى الرسول الكريم ووردت في آيات من الذكر الحكيم، جاءت الإجابة من رب العالمين لخاتم المرسلين بـ "قل" وهذا يؤكد أن السؤال قد وقع بالفعل، إلا في سؤال واحد نزلت فيه الإجابة بـ "فقل" في سؤالهم عن الجبال، لأن هذا السؤال سيتعرض له النبي صلى الله عليه وسلم، فكأن الله أجاب عن أسئلة وقعت بالفعل فقال: "قل"، والسؤال الذي سيأتي من بعد ذلك جاء وجاءت إجابته بـ "فقل" أي أعطاه جواباً مسبقاً.

وعندما أتى السؤال من العباد عن رب العباد سبحانه وتعالى أقريب هو فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فقد جاءت الإجابة مباشرة لا تحتمل وساطة من أحد بين العبد وربه، حتى إن كان نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذا توضيح أنه سبحانه لم يتخذ وسيطا بينه وبين عباده، ودليل قاطع على قرب المولى عز وجل من عباده، فالمولى أقرب إلى عبده من حبل الوريد.
وكان الصحابة رضوان الله عليهم إذا اختلفوا في أمر أو التبس عليهم سعوا إلى تحرى حكم الشرع فيه بسؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، سواء أكان هذا السؤال عن أمر في بيوتهم يحتاجون إلى معرفة أحكامه مثل "المحيض" أو أمر من أمور الجاهلية اعتادوا عليهم وخافوا أن يأثموا من فعلها بعد أن

هداهم الله إلى الإسلام كا "الخمر والميسر"، أو السؤال عن "ماذا ينفقون" جاء عن نوعية الإنفاق مرة، وعن أوجه الإنفاق مرة أخرى، وهكذا، ويتضح من اهتمام الصحابة الكرام بتوجيه تلك الأسئلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم يريدون أن تتفق أعمالهم ومعاملاتهم اليومية مع صحيح الدين، وحتى لا يكونوا بعيدين كل البعد عن الوقوع في مخالفة شرع الله.

السؤال الأول

- مناجاة العباد لربهم -

-

"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ"
(البقرة آية – ١٨٦)

أراد الخالق عز وجل أن يبيّن مدى قربه من عبده، فعندما يلجأ العبد إلى الله بالدعاء والتضرع، لا يحتاج إلى وسيط، وعندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المولى عز وجل أقريب هو فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟، فجاءت الإجابة في الآية الكريمة مباشرة من الله بدون "قل"، ليعلم العبد أن الله تعالى لم يجعل بينه وسيط، حتى وإن كان خاتم الأنبياء والمرسلين.

قال بعض الصحابة: "يا رسول الله، أربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر عباده أنه سميع قريب مجيب، يسمع دعاءهم، ويجيب سؤالهم، ويكشف كربهم، ويزيل همّهم، ويذهب غمهم، ويلبي طلبهم، ويعلم أحوالهم، فعلى العبد أن يسأل ولا ييأس، ويطلب ولا يقنط؛ فالجود واسع، والعطاء كثير، والفضل جزيل، وعلى العباد أن يطيعوا ربهم باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم،

والعمل بشرعه، ويصدّقوا بما أنزل في كتابه، ويتيقنوا بصحة ما جاء به، فالاستجابة عمل، والإيمان اعتقاد، والدعاء قول. فالدين قول وعمل واعتقاد، ومن أطاع الله فقد رشد؛ لأنه ألهم الصواب، ووفق للسداد، وسلك الجادة وخالف الهوى، وجانب الغواية، فثمرة العمل الصالح زيادة في الإيمان، وعاقبة الطاعة زيادة في الهداية[1].

وما دمت قد ذقت حلاوة ما أعطاك الحق من إشراقات صفائية في الصيام فأنت ستتجه إلى شكره سبحانه، وهذا يناسب أن يرد عليك الحق فيقول: " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ"، ونلاحظ أن "إذا" جاءت ولم تأت "إن"، فالحق يؤكد لك أنك بعد ما ترى هذه الحلاوة ستشكر الله؛ لأنه سبحانه يقول في الحديث القدسي: "ثلاثة لا ترد دعوتهم، الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء فيقول ربنا تبارك وتعالى: "وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين" أخرجه الترمذي وابن ماجة والإمام أحمد في مسنده عن أبى هريرة[2].

لأن عادة البعيد أن ينادى، أما القريب فيناجى، ولكى يبين لهم القرب حذف كلمة "قل" فجاء قول الحق : "وإذا سألك عبادي عنى فإني قريب"، وما فائدة ذلك القرب، إن الحق يقول "أجيب دعوة الداع إذا دعان".

شروط إجابة الدعاء

---

[1] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

[2] تفسير الشعراوى ج١٠ ص٧٩٤

لقد قال الحق: "وإذا سألك عبادي"، ونعرف أن فيه فرقا بين عبيد وعباد، صحيح أن مفرد كل منهما "عبد"، ولكن هناك عبيد وعباد، وكل من في الأرض عبيد لله ولكن ليس كل من في الأرض عبادا لله، لماذ؟، لأن العبيد هم الذين يقهرون في الوجود كغيرهم بأشياء، وهناك من يختارون التمرد على الحق، لقد أخذوا اختيارهم تمردا، لكن العابد هم الذين اختاروا الإنقياد لله في كل الأمور، إنهم منقادون مع الجميع في آن واحدة لا يتحكم متى يولد، ولا متى يموت، ولا كيف يوجد، لكن العباد يمتازون بأن الأمر الذي جعل الله لهم فيه اختياريا، قالوا: صحيح يا رب أنت جعلت لنا الاختيار، وقد اخترنا منهجك، ولم نترك هوانا ليحكم فينا، أنت قلت سبحانك، افعل كذا ولا تفعل كذا، ونحن قبلنا التكليف منك يا رب[٣].

فالعباد الذين التزموا لله بالمنهج الإيماني لن يسألوا الله إلا بشيء لا يتنافى مع الإيمان وتكاليفه، "فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي" لأن الدعاء يطلب جواباً، ومادمت تطلب إجابة الدعاء فتأدب مع ربك؛ فهو سبحانه قد دعاك إلى منهجه فاستجب له إن كنت تحب أن يستجيب الله لك "فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي"، وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى في كلمة "الداع"، ولا يتركها مطلقة، فيقول: "إِذَا دَعَانِ" فكأن كلمة "دعا" تأتي ويدعو بها الإنسان.

والعلماء يقولون: إن الدعاء إن قصدت به الذلة والعبودية يكون جميلاً، أما الإجابة فهي إرادة الله، وأنت إن قدرت حظك من الدعاء في الإجابة عليه فأنت لا تُقدر الأمر، إن حظك من الدعاء هو العبادة والذلة لله؛ لأنك لا تدعو إلا إذا اعتقدت أن أسبابك كبشر لا تقدر على هذه المسألة، ولذلك سألت من يقدر عليها، وسألت من يملك، ولذلك يقول الله في الحديث القدسي:

"من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين"[٤].
إذن فقوله: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي"، تعني ضرورة الاستجابة للمنهج، "وَلْيُؤْمِنُواْ بِي" أي أن يؤمنوا به سبحانه إلها حكيما، وليس كل من يسأل يستجاب له بسؤاله نفسه؛ لأن الألوهية تقتضي الحكمة التي تعطي كل صاحب دعوة خيراً يناسب الداعي لا بمقاييسه هو ولكن بمقاييس من يجيب الدعوة.
ويذيل الحق الآية بقول: "لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ"، فما معنى "يَرْشُدُونَ"؟ إنه يعني الوصول إلى طريق الخير وإلي طريق الصواب، وهذه الآية جاءت بعد آية "شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ"، كي تبين لنا أن الصفائية في الصيام تجعل الصائم أهلاً للدعاء، وقد لا يكون حظك من هذا الدعاء الإجابة، وإنما يكون حظك فيه العبادة[٥].

والله سبحانه يذكر السائلين ويعلمهم ما يراعونه في هذه العبادة وغيرها من الطاعة والإخلاص والتوجه إليه وحده بالدعاء الذي يعدهم للهدى والرشاد، وجعلت بأسلوب الفتوى على تقدير السؤال لتنبيه الأذهان، والمراد أن يؤمنوا بأن الله تعالى قريب منهم ليس بينه وبينهم حجاب ولا ولي ولا شفيع يبلغه دعاءهم وعبادتهم، أو يشاركه في إجابتهم أو إثابتهم، ليتوجهوا إليه وحده حنفاء مخلصين له الدين[٦].

---

[٤] أخرجه البخارى
[٥] مصدر سابق
[٦] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده تحقيق وتقديم الدكتور محمد عمارة ص ٤٧٠ ج٤

وقال البيضاوي[٧] في وجه الاتصال : واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقبه بهذه الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم، مجاز على أعمالهم، تأكيدا له وحثا عليه.

و معنى قرب الله تعالى فقد قالوا :إنه القرب بالعلم ، بمعنى أن علمه محيط بكل شيء، فهو يسمع أقوال العباد ويرى أعمالهم، وهو يطلع على أحوالهم[٨].

والمولى عز وجل لم يقل: "إنه يجيب دعوة الداعي" حتى قيدها بقوله: "إذا دعان" قال الأستاذ الإمام محمد عبده أن إجابة الله تعالى للداعى إذا خصه سبحانه بالدعاء والتجأ إليه التجاء حقيقيا بحيث ذهب عن نفسه إليه، وشعر قلبه بأنه لا ملجأ له إلا إلى الله، ومثل هذا لا يطمع في غير مطمع، ولا يطلب ما لا يصح أن يطلب، وإنما يمتثل أمر الله تعالى باتخاذ جميع الوسائل من طرقها الصحيحة المعروفة وهي لا تتحقق إلا بالعلم والعزيمة والعمل، فإن تم للعبد ما يريد بذلك فقد أعطاه الله تعالى من خزائنه التي يفيض منها على جميع متبعي سننه في الخلق، وإن بذل جهده ولم يظفر بسؤله فما عليه إلا أن يلجأ إلى مسبب الأسباب وهادي القلوب إلى ما غاب عنها وخفي عليها، ويطلب المعونة والتوفيق ممن بيده ملكوت كل شيء، وقد قال بعض السلف: "إن مثل هذا يجاب لا محالة".

وقال المفسرون في "فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي" إنه أمر بالمداومة على الإيمان؛ لأن الخطاب للمؤمنين، وذهب الأستاذ الإمام إلى أن الخطاب عام وأن حظ من استجاب لله وللرسول منه أن يحاسب نفسه ويطالبها بأن تكون أعماله الظاهرة التي

---

٧ عبد الله بن عمر البيضاوي، أحد علماء أهل السنة والجماعة

٨ تفسير البيضاوى

عد بها مسلما صادرة عن الإيمان اليقيني والاحتساب والإخلاص لله تعالى.
أما في قوله "لعلهم يرشدون" أي بالجمع بين الإيمان والإذعان للأمر والنهي، والرشد والرشاد ضد الغي والفساد، فعلمنا أن الأعمال إذا لم تكن صادرة بروح الإيمان لا يرجى أن يكون صاحبها راشدا مهديا، فمن يصوم اتباعا للعادة وموافقة للمعاشرين فإن الصيام لا يعده للتقوى ولا للرشاد، وربما زاده فسادا في الأخلاق وضراوة بالشهوات؛ لذلك يذكرنا تعالى في أثناء سرد الأحكام بأن الإيمان هو المقصود الأول في إصلاح النفوس، وإنما نفع الأعمال في صدورها عنه وتمكينها إياه[٩] .
أي أنه ليس بينك وبين الله حجاب ولا وسيط، إذا قال العبد يا رب وهو راكع قال الله له لبيك يا عبدي، وإذا قال العبد يا رب وهو ساجد قال الله له لبيك يا عبيدي، وإذا قال العبد يا رب وهو عاص يقول الله له لبيك ثم لبيك ثم لبيك، أنا أنتظرك.
لو يعلم المعرضون انتظاري لهم وشوقي لترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين[١٠]؟!!
"اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى"(سورة طه: ٤٣-٤٤)
"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (سورة البقرة: ١٨٦)

---

[٩] مصدر سابق
[١٠] **الدكتور محمد راتب النابلسي**

معنى ذلك أن شروط الدعاء أن تؤمن بالله الإيمان الذي يحملك على طاعته، ومن شروط الدعاء أن تستجيب له بطاعته، والائتمار بأمره والانتهاء عما نهى عنه، ومن شروط الدعاء أن تدعوه حقيقة ومخلصاً، إلا أن إنسانين مستثنيان من شروط الدعاء؛ المظلوم يستجيب الله له لا لأهليته ولكن بحكم اسم العدل، والمضطر يستجيب الله له لا لأهليته ولكن باسم الرحمة، باسم الرحمن[١١].

سبب نزول الآية

روى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما في سبب نزول هذه الآية: أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟، فسكت عنه؛ فأنزل الله الآية الكريمة.

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن قال: "سأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين ربنا؟ فنزلت"، وقال الأستاذ الإمام عند ذكر السبب، هذا السؤال ليس ببعيد من العرب أو الأعراب الذين اعتادوا أن يتخذوا وسائل بينهم وبين إلههم يقربونهم إلى خالق السماوات والأرض، وهؤلاء الوسائل والوسائط إما أشخاص وإما أمثلة أشخاص كالتماثيل والأصنام، ولم يهتدوا بأنفسهم إلى التجرد لمعرفة ذلك الإله الواحد العظيم بأنه لا يتقيد بشيء حتى هداهم إليه القرآن بآياته البينات، فكانوا أهل التوحيد الخالص.

ولكن الآية جاءت بين آيات الصيام، وهي متصلة بما قبلها من الأحكام، فقد طالبنا الخالق عز شأنه في الآية السابقة بإكمال عدة الصيام وبتكبيره تعالى، وذكر أن ذلك يعدنا لشكره تعالى،

---

[١١] مصدر سابق

والتكبير والشكر يكونان بالقول نحو :الحمد لله والله أكبر، كما يكونان بالعمل، وما كان بالقول يأتي فيه السؤال: هل يكون برفع الصوت والمناداة، أم بالمخافتة والمناجاة؟ فجاءت هذه الآية جوابا عن هذا السؤال الذي يتوقع إن لم يقع، فهي في محلها سواء صح ما رووه في سببها أم لا.
ويروى في نزولها سبب آخر وهو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سمع المسلمين يدعون الله تعالى بصوت رفيع في غزوة خيبر فقال لهم: "أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصما ولا غائبا"، وعلى كل حال تفيدنا الآية حكما شرعيا وهو أنه لا ينبغي رفع الصوت في عبادة من العبادات إلا بالمقدار الذي حدده الشرع في الصلاة الجهرية، وهو أن يسمع من بالقرب منه[١٢].

[١٢] مصدر سابق - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ص ٤٧٠ ج٤

السؤال الثانى

- الأهلة -

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"

(سورة البقرة – آية ١٨٩)

إن السؤال هنا كان عن شكل الهلال وتغير صورته وحجمه، والإجابة أتت بشكل آخر فالله تعالى يقول فى الإجابة " قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ"، فهو هنا يبين فوائد الأهلة ولا يذكر سبب جعلها صغيرة أو كبيرة (الحالة الفلكية له) وإنما يذكر الحكمة من وراء ذلك فيقول "قل هى مواقيت للناس والحج" وبالفعل فإن الأهلة مواقيت للصوم والإفطار ومواقيت أعمال الحج ففي الصوم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "صوموا لرؤيته – أى الهلال - وأفطروا لرؤيته"، ويقول صلى الله عليه وسلم "فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين"، ثم يقول الله تعالى معللا ذكر الحكمة أن السائلين الذي سألوا كان عليهم أن يسألوا عن الحكمة والفوائد فيقول تعالى: "وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها" فهذه جملة تعليلية تؤكد على ما سبق بيانه من أن

العبرة بالمقاصد، فالقرآن قد أجاب عن سؤالهم عن الأهلة بذكر مقاصدها.

ويسألك الناس يا محمد عن الحكمة من كون الهلال يبدأ صغيرا ثم يكبر شيئا فشيئا، فأخبرهم أن الله أراد أن يعرّفهم أوقات العبادة، وأزمان الطاعة من صيام وزكاة وحج وغير ذلك، وليس العمل الصالح أن تدخلوا بيوتكم من خلفها، كما كنتم تفعلون في الجاهلية، ولكن الطاعة الشرعية لا الجاهلية ولا البدعية هى امتثال أمر الله ودخول المنازل من الأبواب مع هجر المخالفات وترك المنكرات، ففي ذلك الفوز والظفر[١٣].
وفي الآية إشارة إلى أنه على المسلم أن يأتى كل أمر من بابه، ويسلك المدخل المناسب سواء في العلم أو العمل، ليصل إلى أفضل الثمار وأحسن النتائج.

وهذا السؤال الذي نحن بصدده يعالج قضية كونية، وعندما يسأل المسلمون عن قضية كونية فذلك دليل على أنهم التفتوا إلى كون الله التفاتا دينيا آخر، لقد وجدوا الشمس تشرق كل يوم ولا تتغير، أما القمر الذي يطلع في الليل فهو يتغير، إنه يبدأ في أول الشهر صغيرا ثم يكبر حتى يصبح بدرا، وبعد ذلك يبدأ في التناقص حتى يعود إلى ما كان عليه، لقد لفت نظرهم ما يحدث للقمر ولا يحدث من الشمس، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم، أو أن بعضا من اليهود أرادوا إحراج المسلمين فقالوا لهم: "اسألوا رسولكم عن الهلال كيف يبدأ صغيرا ثم يكبر حتى

---

[١٣] **التفسير الميسر د. عائض القرني**

يصير بدرا ثم يعود لدورته مرة أخرى حتى يغرب ليلتين لا نراه فيهما"، وهذا السؤال سجله القرآن الكريم في الآية المباركة[١٤].
جاءت الإجابة من رب البرية تحمل كل التفاصيل عن القمر، وهو الكوكب الذي خضع لنشاطات العقل حتى يكتشفه، والعرب القدامى لم يكونوا يعلمون شيئاً عن ذلك القمر، ولكنهم كانوا يؤرخون به، وعلمهم به لم يزد على حدود انتفاعهم به، ولم يصلوا إلى ترف العقل الذي يتأملون به آيات الله في الكون، فكل آيات الكون ينتفع بها ثم ينشط العقل بعد ذلك، فتعرف السبب، وقد لا ينشط العقل فتظل الفائدة هي الفائدة .
وأراد الحق سبحانه أن يلفتنا لمبدأ هام، وهو أن يعلمنا كيف نستفيد من الآيات الكونية مثل القمر، لا يكفي ظهوره واختفاؤه، وتغير حجمه، لأن هذه لن يتسع لها العقل، بل نستفيد منه كميقات، ونستخدمه لقياس الزمن.
فإذا كان العلماء في عصرنا هذا لم يعرفوا سبباً لظواهر القمر، فكيف كان حال الذين سألوا عنها منذ أربعة عشر قرناً؟، قال العلماء المعاصرون في تفسيراتهم مثلاً: إن الشمس مثل حجم الأرض مليونا وربع مليون مرة، والقمر أصغر من الأرض، وعندما تأتي الأرض بين الشمس والقمر برغم حجم الشمس الهائل فإن الأرض تحجب جزءاً من القمر، هذا الجزء المحجوب بقدر تدوير القوس المحجوب من الأرض ويصبح هذا الجزء من القمر مظلماً.
إن القمر وجوده ثابت لكن الأرض عندما توجد بينه وبين الشمس فهي التي تحجب عنه ضوء الشمس، ويكبر حجم نوره كلما تزحزحت الأرض بعيداً عنه. وعندما تنزاح الأرض بعيداً

---

[١٤] تفسير الشعراوى ج١٠ ص٨٢٢

عنه كلية يظهر في السماء بدراً كاملاً، ثم تعود الأرض بعد ذلك لتحجب عنه جزءاً من الشمس، ويزداد ذلك يوماً بعد يوم، فينقص ضوء الشمس المنعكس عليه تبعاً لذلك، فيقل تدريجياً حتى تأتي الأرض بينه وبين الشمس فلا يظهر منه شيء[١٥].

فعندما لا نرى القمر لا في الليل ولا في النهار برغم أنه موجود في مكانه، نقول: إنه مستور في ظل الأرض، لذلك لا نراه، وهذه الظاهرة لا تحدث للشمس لأن جرم الشمس كبير جداً، وعندما يحدث فإن الأثر يكون قليلا، ويسمى بالكسوف.

وعندما التفت العرب للكون قالوا: ما بال الهلال يصبح هكذا ثم يكبر حتى يصير بدراً، فقال الحق عز وجل: "قل هي مواقيت للناس والحج" إنهم هم يسألون عن الأهلة ودورتها، فقطع الله عليهم خيط تفكيرهم وأعطاهم الخلاصة والنتيجة، فقال: "قل هي مواقيت للناس والحج".

إن هذا الأمر هو الذي يستطيع العقل في ذلك الزمان أن يعرفه، أما ما وراء ذلك فانتظروا حتى يكشف الزمن عنه، وجهلكم به لا يقلل من نفعكم.

وعندما سأل العرب عن الأهلة أخبرنا الحق بأنها مواقيت، والمواقيت جمع ميقات، والميقات من الوقت، والوقت هو الزمن، ونعرف أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمن وإلى مكان. إذن فالزمان والمكان مرتبطان بالحديث فلا يوجد زمان ولا مكان إلا إذا وجد حدث.

فنحن بالهلال نعرف بدء شهر رمضان، ونعرف به عيد الفطر، وكذلك موسم الحج وعدة المرأة، والأشهر الحرم، إن كل هذه الأمور إنما نعرفها بالمواقيت. وشاء الحق أن يجعل الهلال هو أسلوب تعريفنا تلك الأمور وجعل الشمس لتدلنا على اليوم فقط،

---

[١٥] تفسير الشعراوى ج١٠ ص٨٢٢

وإن كان لها عمل آخر في البروج التي يتعلق بها حالة الطقس والجو، والزراعة، ولذلك قال:
"هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ".[١٦]
وانظر إلى الدقة في الأداء وكيف يشرح الحق للإنسان ماهية النور، وماهية الضوء، إن الشمس مضيئة بذاتها، أما القمر فهو منير؛ لأن ضوءه من غيره؛ فهو مثل قطعة الحجر اللامعة التي تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطينا نورا. إن القمر منير بضوء غيره، ولذلك يقول الحق في آية أخرى:
"تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً"[١٧].
والسراج في هذه الآية هو الشمس التي فيها حرارة، وجعلها الحق ذات بروج، أما القمر فله منازل وهو منير بضوء غيره[١٨].
إذن فعدد السنين وحسابها يأتي من القمر، وفي زماننا إذا أرادوا أن يضبطوا المعايير الزمنية فهم يقيمونها بحساب القمر؛ فقد وجدوا أن الحساب بالقمر أضبط من الحساب بالشمس؛ فالحساب بالشمس يختل يوماً كل عدد من السنين.
ولنفهم الفرق بين منازل القمر وبروج الشمس. إن البروج هي أسماء من اللغة السريانية، وهو: برج الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والعذراء، والأسد، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وعددها اثنا عشر برجا هذه هي أبراج الشمس، ويتعلق بها مواعيد الزرع والطقس

---

[١٦] سورة يونس – آية ٥
[١٧] سورة الفرقان – آية ٦١
[١٨] المصدر نفسه

والجو، ويحب أن نفهم أن لله في البروج أسراراً، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعلها قسماً حين يقول: "والسماء ذات البروج".
ولذلك تجد أن التوقيت في الشمس لا يختلف؛ فالشهور التي تأتي في البرد، والتي تأتي في الحر هي هي، وكذلك التي تأتي في الخريف، والربيع، وبين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يوما، والسنة القمرية هي التي تستخدم في التحديد التاريخي للشهور العربية ونعرف بداية كل شهر بالهلال: "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً"، (سورة التوبة – آية ٣٦).
ولذلك كانت تكاليف العبادة محسوبة بالقمر حتى تسيح المنازل القمرية في البروج الشمسية، فيأتي التكليف في كل جو وطقس من أجواء السنة، فلا تصوم رمضان في صيف دائم، ولا في شتاء دائم، ولكن يقلب الله مواعيد العبادات على سائر أيام السنة، والذين يعيشون في المناطق الباردة مثلاً لو كان الحج ثابتا في موسم الصيف لما استطاعوا أن يؤدوا الفريضة، ولكن يدور موسم الحج في سائر الشهور فعندما يأتي الحج في الشتاء ييسر لهم مهمة أداء الفريضة في مناخ قريب من مناخ بلادهم.
وهكذا نجد أن حكمة الله اقتضت أن تدور مواقيت العبادات على سائر أيام السنة حتى يستطيع كل الناس حسب ظروفهم المناخية أن يؤدوا العبادات بلا مشقة. إذن فالمنازل شائعة في البروج، وهذا سبب قول بعض العلماء: إن ليلة القدر تمر دائرة في كل ليالي السنة، وذلك حسب سياحة المنازل في البروج.
إذن فهناك بروج للشمس، ومنازل للقمر، ومواقع للنجوم، ومواقع النجوم التي يقسم بها الله سبحانه في قوله:

"فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ"[١٩].
ولعل وقتا يأتي يكشف الله فيها للبشرية أثر مواقع النجوم على حياة الخلق وذلك عندما تتهيأ النفوس لذلك وتقدر العقول على استيعابه. إذن كل شيء في الكون له نظام: للشمس بروج، وللقمر منازل، وللنجوم مواقع. وكل أسرار الكون ونواميسه ونظامه في هذه المخلوقات، وقد أعطانا الله من أسرار الأهلة أنها مواقيت للناس والحج[٢٠].
ووصفت الأهلة بأنها مواقيت للناس، أي مواقيت لهم في صيامهم وحجهم من العبادات، وفي نحو عدة النساء وآجال العقود من المعاملات؛ فإن التوقيت بها يسهل على العالم بالحساب والجاهل به، وعلى أهل البدو والحضر، فهي مواقيت لجميع الناس، وأما السنة الشمسية فإن شهورها تعرف بالحساب فهي لا تصلح إلا للحاسبين، ولم يقدروا على ضبطها إلا بعد ارتقاء العلوم الرياضية بزمن طويل[٢١].
قال الأستاذ الإمام: كأنه قال كان عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة في اختلاف الأهلة إن لم تكونوا تعرفونها، وإلا فعليكم الاكتفاء بها وعدم مطالبة الشارع بما ليس من الشرع، ففي الكلام تعريض بأن سؤالهم في غير محله، ولو توجه هذا السؤال ممن يتعلم علم الفلك إلى أستاذه فيه لما عد في غير محله، ولكنه موجه من أمي إلى نبي لا إلى فلكي، فهو في غير محله من هذا الوجه لا لذاته، وإلا لكان النظر في السماوات والأرض لأجل الوقوف على أسرار الخليقة وأسباب ما فيها من الآيات والعبر مذموما، وكيف يذم وقد أرشدنا الله تعالى إليه،

---

[١٩] سورة الواقعة ــ آية ٧٥، ٧٦
[٢٠] تفسير الشعراوى
[٢١] **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده الجزء الرابع ص ٤٨٣**

وحثنا في كتابه عليه: "أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ" (سورة ق – آية ٦).
روى البخاري وابن جرير عن البراء قال : "كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره" فأنزل الله الآية، وبعد أن أعلمهم الله تعالى بخطئهم في ذلك بين لهم البر الحقيقي فقال : "ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون" أي : إن البر هو تقوى الله تعالى بالتخلي عن المعاصي والرذائل، وعمل الخير والتحلي بالفضل، واتباع الحق واجتناب الباطل، فأتوا البيوت من أبوابها، وليكن باطنكم عنوانا لظاهركم بطلب الأمور كلها من مواضعها، واتقوا الله رجاء أن تفلحوا في أعمالكم، وتبلغوا غاية آمالكم، فمن يتق الله يجعل له من أمره يسرا.
ومن مباحث اللفظ : أن الأهلة جمع هلال : وهو القمر في ليلتين أو ثلاث من أول الشهر على الأشهر، وقيل : حتى يحجر ؛ أي : يستدير بخط دقيق، وقيل : حتى يبهر ضوءه سواد الليل، وقدروا ذلك بسبع. وقالوا : إنه مأخوذ من استهل الصبي إذا صرخ حين الولادة، وذلك أنهم كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤيته للإعلام بها يقولون : الهلال والله، وأهل الرجل : رفع صوته عند رؤيته، وأهل بالحج : رفع صوته بالتلبية، وأهل بذكر الله وباسم الله، وأهل القوم واستهلوا : رأوا الهلال[٢٢].

اتجه الجواب عن هذا السؤال إلى واقع حال السائلين العملى لا إلى مجرد العلم النظري؛ وحدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر، وكيف تتم وهى داخلة في مدلول السؤال: وهو ما بال القمر يبدو هلالا؟،

[٢٢] المصدر نفسه الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده

كذلك لم يحدثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية أو في توازن حركة الأجرام السماوية، وهى داخلة في مضمون السؤال: لماذا خلق الله الأهلة؟ فما هو الإيحاء الذي ينشه هذا الاتجاه في الإجابة[٢٣]؟

لقد كان القرآن بصدد إنشاء تصور خاص، ونظام خاص، ومجتمع خاص، كان بصدد إنشاء أمة جديدة في الأرض، ذات دور خاص في قيادة البشرية، لنشىء نموذجا معينا من المجتمعات غير مسبوق؛ ولتعيش حياة نموذجية خاصة غير مسبوقة؛ ولتقر قواعد هذه الحياة في الأرض؛ وتقود إليها الناس.

والإجابة العلمية عن هذا السؤال ربما كانت تمنح السائلين علما نظريا في الفلك؛ وإذا هم استطاعوا بما كان لديهم من معلومات قليلة ذلك الحين؛ أن يستوعبوا هذا العلم، ولقد كان ذلك مشكوكا فيه كل الشك، لأن العلم النظرى من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات[٢٤].

من هنا عدل عن الإجابة التي لم تتهيأ لها البشرية، ولا تفيدها كثيرا في المهمة الأولى التي جاء القرآن من أجلها، وليس مجالها على أية حال هو القرآن. إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، ولم يجىء ليكون كتاب علم فلكى أو كيماوى أو طبي، كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم.

---

[٢٣] في ظلال القرآن – سيّد قطب ص ١٨٠

[٢٤] في ظلال القرآن – سيّد قطب

والارتباط بين شطري الآية يبدو أنه هو المناسبة بين أن الأهلة هي مواقيت للناس والحج ، وبين عادة جاهلية خاصة بالحج هي التي يشير إليها شطر الآية الثاني "وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها؛ ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها". .

وروى أبو داود عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء قال : كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه فنزلت هذه الآية، وسواء كانت هذه عادتهم في السفر بصفة عامة، أو في الحج بصفة خاصة وهو الأظهر في السياق، فقد كانوا يعتقدون أن هذا هو البر - أي الخير أو الإيمان - فجاء القرآن ليبطل هذا التصور الباطل، وهذا العمل المتكلف الذي لا يستند إلى أصل، ولا يؤدي إلى شيء. وجاء يصحح التصور الإيماني للبر.

فالبر هو التقوى، وهو الشعور بالله ورقابته في السر والعلن، وليس شكلية من الشكليات التي لا ترمز إلى شيء من حقيقة الإيمان، ولا تعني أكثر من عادة جاهلية، كذلك أمرهم بأن يأتوا البيوت من أبوابها، وكرر الإشارة إلى التقوى، بوصفها سبيل الفلاح، وبهذا ربط القلوب بحقيقة إيمانية أصيلة - هي التقوى - وربط هذه الحقيقة برجاء الفلاح المطلق في الدنيا والآخرة؛ وأبطل العادة الجاهلية الفارغة من الرصيد الإيماني ، ووجه المؤمنين إلى إدراك نعمة الله عليهم في الأهلة التي جعلها الله مواقيت للناس والحج[٢٥].

أسباب نزول الآية

---

[٢٥] المصدر السابق - في ظلال القرآن – سيّد قطب

يكاد يتفق أهل التفسير في نقل سبب نزول الآية إلا أن بعضهم أبهم وبعضهم صرح في ذكر الذي كان سائلاً رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الهلال.

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ : "هذا مما سأل عنه اليهود واعترضوا به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال معاذ ـ رضي الله عنه ـ : "يا رسول الله إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينتقص حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقيل: "إن سبب نزولها سؤال قوم من المسلمين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الهلال وما سبب محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس؟.

السؤال الثالث

- الشهر الحرام -

"يسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"

(سورة البقرة - آية ٢١٧)

يسألك الناس – يا محمد – عن القتال في الشهر الحرام أيحلُّ أم يحرم؟ فأجبهم بأن القتال فيه مُحرّم وإثمه عظيم وجرمه شنيع، فلا تقاتلوا فيه من لم يقاتلكم، ولكن منع الناس من الإسلام ودعوتهم للكفر بالله وتدنيس المسجد الحرام وطرد الرسول والصحابة من مكة أعظم ذنبا وأكثر إثما من قتلكم للكفار في الشهر الحرام، فإن كان قتلكم لهم في هذا الشهر عظيما فأعظم منه ما فعلوه بكم وبدين الله ورسوله وبيته؛ لأن رد المسلم عن

دينه أعظم إثما من قتلكم لهم وسوف يستمر الكفار يقاتلون المؤمنين حتى يردوهم عن الإسلام بما استطاعوا من جهد، فمن يترك دينه ويرغب في الكمفر ويستمر على ذلك حتى الموت ضيّع الله سعيه، وأبطل أجره وأحبط عمله وخلّه في النار[٢٦].

والسؤال هنا ليس عن الشهر الحرام؛ لأنه كان معروفا عندهم من أيام الجاهلية ولكن السؤال عن القتال في الشهر الحرام، فما جدوى السؤال إذن؟ إنه سؤال استفزازي، والمسألة لها قصة. ونعرف أن للسنة أثنى عشر شهراً، وقد جعل الله فيها أربعة أشهر حرم: شهر واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سرد، هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ومعنى أشهر حرم أي أن القتال محرم فيها[٢٧].

لقد علم الله كبرياء الخلق على الخلق، لذلك جعل الله لخلقه ساترا يحمي كبرياءهم، ومن هذه السنن التي سنها الله هي حرمة القتال في الأشهر الحرم، والأماكن الحرم، فيجوز أن الحرب تضر المحارب، لكن كبرياءه أمام عدوه يمنعه من وقف القتال، فيستمر في الحرب مهما كان الثمن، فيأتي الحق سبحانه وتعالى ويقول للمتحاربين: ارفعوا أيديكم في هذه الشهور لأني حرمت فيها القتال. وربما كان المحاربون أنفسهم يتمنون من أعماقهم أن يتدخل أحد ليوقف الحرب، ولكن كبرياءهم يمنعهم من التراجع، وعندما يتدخل حكم السماء سيجد كل من الطرفين حجة ليتراجع مع حفاظه على ماء الوجه. وكذلك جعل الله أماكن

---

[٢٦] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

[٢٧] تفسير الشعراوى ج١٢ ص٩٤١

محرمة، يحرم فيها القتال حتى يقول الناس إن الله هو الذي حرمها، وتكون لهم ستاراً يحمي كبرياءهم .
إذن فالحق سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان أراد أن يصون الإنسان حتى يحقن الدماء، فإذا ظل الناس ثلاثة أشهر بلا حرب، ثم شهراً آخر، فنعموا في هذه الفترة بالسلام والراحة والهدوء، فربما يألفون السلام، ولا يفكرون في الحرب مرة أخرى، لكن لو استمرت الحرب بلا توقف لظل سعار الحرب في نفوسهم، وهذه هي ميزة الأشهر الحرم.
والأشهر الحرم حرم في الزمان والمكان؛ لأن الزمان والمكان هما ظرف الأحداث، فكل حدث يحتاج زمانا ومكانا. وعندما يحرم الزمان ويحرم المكان فكل من طرفي القتال يأخذ فرصة للهدوء .
إن الحق سبحانه وتعالى يعرض هنا قضية أراد بها خصوم الإسلام من كفار قريش واليهود أن يثيروها؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل بعض السرايا للاستطلاع، والسرية هي عدد محدود من المقاتلين، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرسل سرية على رأسها عبد الله بن جحش الأسدي ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرسل معه ثمانية أفراد، وجعله أميرا عليهم، وأعطاه كتابا وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين، وذلك حتى لا يعلم أحد أين تذهب السرية، وفي ذلك احتياط في إخفاء الخبر[٢٨] .
فلما سارت السرية ليلتين فتح عبد الله الكتاب وقرأه فإذا به: اذهب إلى "بطن نخلة" وهو مكان بين مكة والطائف واستطلع عير قريش، ولا تكره أحدا ممن معك على أن يسير مرغما،

---

[٢٨] تفسير الشعراوى

بمعنى أن يكون لكل فرد في السرية حرية الحركة، فمن يفضل عدم السير فله هذا الحق.
وبينما هم في الطريق ضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعقبة بن غزوان، وذهبا يبحثان عن البعير، وبقى ستة مقاتلين مع عبد الله، وذهب الستة إلى "بطن نخلة" فوجدوا "عمرو بن الحضرمي" ومعه ثلاثة على عير لقريش، فدخلوا معهم في معركة، وكان هذا اليوم في ظنهم هو آخر جمادى الآخرة، لكن تبين لهم فيما بعد أنه أول رجب أي أنه أحد أيام شهر حرام.
وقتل المسلمون ابن الحضرمي، قتله واقد بن عبد الله من أصحاب عبد الله ابن جحش، وأسروا اثنين ممن معه، وفر واحد، فلما حدث هذا، وتبين لهم أنهم فعلوا ذلك في أول رجب، عند ذلك اعتبروا أن قتالهم وغنائمهم مخالفة لحرمة شهر رجب.
وثارت المسألة أخذا ورداً بين المسلمين قبل أن تتحدث فيها قريش حيث قالوا: إن محمداً يدعي أنه يحترم المقدسات ويحترم الأشهر الحرم، ومع ذلك قاتل في الأشهر الحرم، وسفك دمنا، وأخذ أموالنا، وأسر الرجال. فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغنائم والأسرى حتى يفصل الله في القضية فنزلت هذه الآية.
نحن مُسلّمون أن القتال في الشهر الحرام أمر كبير، ولكن انظروا يا كفار قريش إلى ما صنعتم مع عبادنا وقارنوا بين كبر هذا وكبر ذاك. أنتم تقولون: إن القتال في الشهر الحرام مسألة كبيرة، ولكن صدكم عن سبيل الله وكفركم به، ومنعكم المسلمين من المسجد الحرام، وإخراج أهل مكة منها اكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، فلا تفعلوا ما هو اكبر من القتال في الشهر الحرام، ثم تأخذكم الغيرة على الحرمات .

فكأن الحق أراد أن يضع قضية واضحة هي: لا تؤخذوا من جزئيات التدين أشياء وتتحصنوا فيها خلف كلمة حق وأنتم تريدون الباطل فالواقع يعرض الأشياء، ونحن نقول: نعم إن القتال في الشهر الحرام كبير. ولكن يا كفار قريش اعلموا أن فتنة المؤمنين في دينهم وصدهم عن طريق الله، وكفركم به ـ سبحانه ـ وإهداركم حرمة البيت الحرام بما تصنعون فيه من عبادة غير الله، وإخراجكم أهله منه، إن هذه الأمور الآثمة هي عند الله أكبر جرما، وأشد إثما من القتال في الأشهر الحرم لاسترداد المسلمين بعض حقهم لديكم[٢٩] .

بعدما بيّن سبحانه أن القتال كُتب على هذه الأمة فلا مفر منه، وإن كرهه المؤمنون خشية أن يضيع الحق بهلاك أهله، أو لما أودع القرآن قلوبهم من الرحمة والرجاء بجذب الناس إلى الإيمان بجاذب الدليل والحجة ـ وهو الأرجح ـ بيّن سبحانه مسألة لابد في هذا المقام من بيانها للحاجة إلى العلم بها، على أنه وقع السؤال عنها، وهي مسألة القتال في الشهر الحرام، فقد كانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم وهي: (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب)[٣٠].

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقر الناس على غير القبيح مما كانوا عليه، وترك القتال أربعة أشهر من السنة حسن؛ لأنه تقليل للشر؛ لذلك كان لما فعله عبد الله بن جحش وأصحابه وقع سيئ عند المسلمين والمشركين جميعا، على أنهم لم يكونوا يعلمون عند أخذ العير وقتل من قتلوا أن ذلك اليوم غرة رجب.

---

[٢٩] المصدر السابق - تفسير الشعراوى

[٣٠] **الأعمال الكاملة (محمد عبده) الجزء الرابع فى تفسير القرآن ص ٥٧٨**

والظاهر المتبادر أن إثبات كون القتال في الشهر الحرام كبيرا تمهيد للحجة على أن ما فعله عبد الله بن جحش وما عساه يفعله المسلمون من القتال فيه مبني على قاعدة لا ينكرها عقل، وهي وجوب ارتكاب أخف الضررين إذا لم يكن بد من أحدهما، ولا شك أن القتال في نفسه أمر كبير وجرم عظيم، وإنما يرتكب لإزالة ما هو أعظم منه وذلك قوله تعالى: "وصد على سبيل الله" أي وصد الناس ومنعهم عن الطريق الموصل إليه تعالى وهو الإسلام، وهو الذي يفعله المشركون من اضطهاد المسلمين وفتنتهم عن دينهم؛ إذ يقتلون من يسلم أو يؤذونه في نفسه وأهله وماله، ويمنعونه من الهجرة إلى النبي صلى الله عليه[٣١].

ثم صرح بالعلة العامة لمشروعية القتال، وهي فتنة الناس عن دينهم فقال: "والفتنة أكبر من القتل" وكان المشركون يفتنون المؤمنين عن دينهم بإلقاء الشبهات، وبما علم من الإيذاء والتعذيب، كما فعلوا بعمار بن
ياسر وعشيرته،وبلال وصهيب وخباب بن الأرت وغيرهم.

والقتال في الشهر الحرام أهون من الفتنة عن الإسلام لو لم يحتف بها غيرها من الآثام، كيف وقد قارنها الصد عن سبيل الله والكفر به، والصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه، والاعتداء بالقتال والاستمرار عليه، وقوله: "إن استطاعوا"، يفيد الشك في استطاعتهم وعدم الثقة بها؛ لأن من عرف الإسلام معرفة صحيحة - وهو الحق الصريح - لا يرجع عنه إلى الكفر - وهو الباطل المفضوح - وهكذا كان وهكذا يكون، فلا يزال الكفار يقاتلوننا ليردونا عن ديننا إن استطاعوا، ولم يستطيعوا.

---

٣١ نفس المصدر

ولما ذكر الردة التي يبغونها بقتالهم بين حكمها فقال: "ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة"، أي ومن يرجع منكم عن الإسلام إلى الكفر حتى يموت عليه - فرضا - فأولئك المرتدون هم الذين بطلت وفسدت أعمالهم في الدارين حتى كأن واحدهم لم يعمل صالحا قط؛ لأن الرجوع عن الإيمان إلى الكفر يشبه الآفة تصيب المخ والقلب فتذهب بالحياة؛ فإن لم يمت المصاب بعقله وقلبه فهو في حكم الميت لا ينتفع بشيء، وكذلك الذي يقع في ظلمات الكفر بعد أن هدي إلى نور الإيمان تفسد روحه ويظلم قلبه، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية، ولا يعطى شيئا من أحكام المسلمين الظاهرة، فيخسر الدنيا والآخرة.

يقول بعض الفقهاء : إن المرتد تبطل أعماله حتى كأنه لم يعمل خيرا قط، وحتى إنه يجب عليه إعادة نحو الحج إذا رجع إلى الإسلام، وتطلق منه امرأته طلاقا بائنا فلا تعود إليه إذا هو عاد إلى الإسلام إلا بعقد جديد. ويقول غيرهم : إن حبوط العمل مشروط بالموت على الكفر؛ فإذا ارتد المسلم مدة ثم عاد لا تجب عليه إعادة نحو الحج، وأما امرأته فإنها تكون موقوفة إلى انتهاء العدة، فإن عاد إلى الإسلام قبل انقضاء عدتها كانت على عصمته، وإن عاد بعد انقضاء العدة فإنها لا ترجع إليه بعقد جديد، وللردة أحكام أخرى عند الفقهاء تطلب من كتبهم.

كأنه تعالى يقول للمؤمنين الكارهين للقتال لا سيما في الشهر الحرام: إذا كان هؤلاء المشركون على ما ذكر من الكفر والطغيان، ومن إيذائكم وفتنتكم عن الإيمان، ومن منع إخوانكم عن الهجرة إليكم بعد طردكم من الأوطان، ومن القصد إلى قتالكم حتى يردوكم عن دينكم لتخسروا دنياكم وآخرتكم فلا

ينبغي أن تحجموا عن قتالهم عند الإمكان، ولا أن تحفلوا بإنكارهم عليكم القتال في الشهر الحرام[٣٢].

وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة بعد تفظيعها واعبارها أشد من القتل، هذا التكرار يوحي بأمية الأمر في اعتبار الإسلام وينشىء مبدأ عظيم يعلي في حقيقته ميلادا جديدا للإنسان على يد الإنسان، ميلادا تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته وتوضع حياته في كفة وعقيدته في كفة فترجح كفة العقيدة؛ كذلك يتقرر في هذا المبدأ من هم أعداء (الإنسان) إنهم أولئك الذين يفتنون مؤمنا عن دينه ويؤذون مسلما بسبب إسلامه، أولئك الذين يحرمون البشرية أكبر عنصر للخير، ويحولون بينها وبين منهج الله، وهؤلاء على الجماعة المسلمة أن تقاتلهم[٣٣]، وأن تقتلهم حيث وجدتهم "وَقَاتِلُوَهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ"[٣٤].

وهذا المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام في أوائل ما نزل من القرآن عن القتال مازال قائما ولا تزال العقيدة تواجه من يعتدون عليها وعلى أهلها في شتى الصور ولا يزال الأذى والفتنة تلم بالمؤمنين أفرادا وجماعات وشعوبا كاملة في بعض الأحيان، وكل ما يتعرض للفتنة في دينه والأذى في عقيدته في

---

[٣٢] **المصدر السابق - الأعمال الكاملة (محمد عبده) الجزء الرابع فى تفسير القرآن**

[٣٣] **في ظلال القرآن – سيّد قطب ص١٩١**

[٣٤] سورة البقرة – آية ١٩٣

أي صورة من الصور وفي أي شكل من الأشكال مفروض عليه أن يقاتل وأن يقتل وأن يحقق المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام فكان ميلادا جديدا للإنسان.
فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم وكفّوا عن الحيلولة بين الناس وربهم فلا عدوان عليهم، أي لا مناجزة لهم، لأن الجهاد إنما يوجه إلى الظلم والظالمين، ويسمى دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانا من باب المشاكلة اللفظية، وإلا فهو العدل والقسط، ودفع العدوان عن المظلومين.
ثم بيّن حكم القتال في الأشهر الحرم كما بيّن حكمه عند المسجد الحرام، "الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ"[٣٥].

فالذي ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يحرم الضمانات التي يكفلها له الشهر الحرام، وقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام في المكان.
كما جعل الأشهر الحرم راحة للأمن والسلام في الزمان تصان فيها الدماء والحرمات والأموال، ولا يمس فيها حي بسوء، فمن أبى أن يستظل بهذه الواحة وأراد أن يحرم المسلمين منها فجزاؤه أن يحرم هو منها[٣٦].
فالذي ينتهك حرمة "الشهر الحرام" جزاؤه أن يحرم الضمانات التي يكفلها له الشهر الحرام، وقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام في المكان؛ كما جعل الأشهر الحرم واحة للأمن والسلام في الزمان، تصان فيها الدماء والحرمات والأموال ولا يمس فيها حي بسوء، فمن أبى أن يستظل بهذه الواحة وأراد

---

[٣٥] سورة البقرة – آية ١٩٤
[٣٦] المصدر السابق - في ظلال القرآن – سيّد قطب

أن يحرم المسلمين منها، فجزاؤه أن يحرم منه، والذي ينتهك الحرمات، لا تصان حرماته، فالحرمات قصاص، ومع هذا فإن أباحة الرد والقصاص للمسلمين توضع في حدود لا يتعدونها، فما تباح هذه المقدسات إلا للضرورة وبقدرها، بلا تجاوز ولامغالاة، والمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم، وقد كانوا يعلمون أنهم إنما ينصرون بعون الله، فيذكرهم هنا بأن الله مع المتقين، وهذا الضمان كل الضمان[٣٧].

من السائل؟
والسائلون قيل هم المؤمنون؛ وقد سألوا عن حكم ذلك على سبيل التعليم والتماس المخرج لما حصل منهم، وقيل هم المشركون وسؤالهم على سبيل التعبير للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حيث أقدم بعضهم وهو عبد الله ومن معه على القتال فيه فرد الله عليهم بأن القتال فيه كبير ولكن ما فعله هؤلاء المشركون من صد عن سبيل الله وكفر به، أكبر من ذلك بكثير[٣٨].
الجواب تشريع إن كان السؤال من المسلمين، وتبكيت وتوبيخ إن كان من المشركين، لأنهم توقعوا أن يجيبهم بإباحة القتال فيه فيثيروا الشبهات حول الإسلام والمسلمين، فلما أجابهم بأن القتال فيه كبير وأن ما فعلوه من جرائم في حق المسلمين أكبر وأعظم كبتوا وألقموا حجراً.
والقوم أرادوا بقولهم : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ } ذلك القتال المعين الذي أقدم عليه عبد الله وأصحابه فقال تعالى:

---

[٣٧] المصدر السابق
[٣٨] **التفسير الوسيط - الإمام الراحل محمد سيد طنطاوي**

{ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ }. وفيه تنبيه على أن القتال الذي يكون كبيراً ليس هو القتال الذي سألتم عنه؛ بل هو قتال آخر؛ لأن هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام وإذلال الكفر فكيف يكون هذا من الكبائر؟ إنما القتال الكبير هو الذي يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر؛ فكان اختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة، ولو أنه وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة، فسبحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب - بل تحت كل حرف منه - سر لطيف لا يهتدي إليه إلا أولو الألباب.

ثم أخذ القرآن يعدد على المشركين جرائمهم التي كل جريمة منها أكبر من القتال في الشهر الحرام الذي فعله المؤمنون لدفع الضرر عن أنفسهم أو لعدم معرفتهم بالميقات فقال تعالى: "وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ"، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين نحن نوافقكم على أن القتال في الشهر الحرام كبير، ثم قل لهم أيضاً على سبيل التوبيخ إن ما فعلتموه أنتم من صرفكم المسلمين عن طاعة الله وعن الوصول إلى حرمه، ومن شرككم بالله في بيته، ومن إخراجكم لأهله منه أعظم وزرا عند الله من القتال في الشهر الحرام.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين بسبب ما وقع من عبد الله بن جحش ومن معه، وتبكيت المشركين على إجرائمهم التي أولها يتمثل في قوله تعالى: "وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ" أي: منع من يريد الإسلام من دخوله، وابتدأ سبحانه ببيان صدهم عن سبيله للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق في ذاته، وثانيها قوله: "وَكُفْرٌ بِهِ" أي : كفر بالله تعالى وهو معطوف على ما قبله، وثالثها قوله: "والمسجد

الحرام" وهو معطوف على سبيل الله أي: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بمنعهم المؤمنين من الحج والاعتمار[٣٩].
ورابعها قوله: "وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ" أي: وإخراج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مستقرهم حول المسجد الحرام بمكة وهم القائمون بحقوقه، كل ذلك "أكبر" جرما، وأعظم إثما "عِندَ الله" من القتال في الشهر الحرام.
قال الجمل: فقوله "أكبر" خبر عن الثلاثة وهم: صد وكفر وإخراج وفيه حينئذ احتمالان: أحدهما: أن يكون خبراً عن المجموع، وثانيهما: أن يكون خبرا عنهما باعتبار كل واحد كما تقول: زيد وبكر وعمرو أفضل من خالد، أي: كل واحد منهم على انفراده أفضل من خالد، وهذا هو الظاهر، والمفضل عليه محذوف، أي أكبر مما فعلته السرية.
ثم أضاف سبحانه إلى جرائمهم السابقة جريمة خامسة فقال: "والفتنة أَكْبَرُ مِنَ القتل" أي: ما فعله المشركون من إنزال الشدائد بالمؤمنين تارة بإلقاء الشبهات وتارة بالتعذيب ليحملوهم على ترك عقيدتهم أكبر إثما من القتال في الشهر الحرام، لأن الفتنة عن الدين تفضي إلى القتل الكثير في الدنيا وإلى استحقاق العذاب الدائم في الآخرة.
وقيل المراد بالفتنة هنا الكفر، أي: كفركم بالله أكبر من القتل في الشهر الحرام، وأصيل الفتنة: عرض الذهب على النار، لاستخلاصه من الغش، ثم استعملت في الشرك وفي الامتحان بأنواع الأذى والاضطهاد، ويعزى إلى عبد الله بن جحش أنه قال ردا على المشركين عندما قالوا: استحل محمد وأصحابه القتال في الشهر الحرام، تعدون قتلا في الحرام عظيمة، وأعظم منه لو يرى الرشد راشد صدودكم عما يقول محمد وكفر به،

---

[٣٩] التفسير الوسيط - الإمام الراحل محمد سيد طنطاوي

والله راء وشاهد، وإخراجكم من مسجد الله أهله، لئلا يرى لله في البيت ساجد، فإنا وإن عيَّرتُمونا بقتله، وأرجف بالإسلام باغ وحاسد، سقينا من ابن الحضرمي رماحنا، بنخلة لما أوقد الحرب واقد دماً، وابن عبد الله عثمان بيننا، ينازعه غل من القد عاند.

وقوله تعالى: "وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حتى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِن اسْتَطَاعُواْ" بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها، أي: ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم السوء ويداومون على إيذائكم لكي يرجعوكم عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه.

والتعبير بقوله "وَلاَ يَزَالُونَ" المفيد للدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع وأنهم لن يكفوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم، و "حتى" للتعليل أي: "وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ" لكي "يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِن اسْتَطَاعُواْ"، أو بمعنى إلى أن يردوكم عن دينكم، والرد: الصرف عن الشيء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك: فغاية المشركين أن يردوا المسلمين بعد إيمانهم كافرين، وقوله: "إِن اسْتَطَاعُواْ" يدل كما يقول الزمخشري على استبعاد استطاعتهم رد المسلمين عن دينهم، وذلك كقول الرجل لعدوه: "إن ظفرت بي فلا تبق على"[٤٠].

---

[٤٠] المصدر السابق - التفسير الوسيط - الإمام الراحل محمد سيد طنطاوي

السؤال الرابع

- أوجه الإنفاق -

"يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ"
(سورة البقرة – آية ٢١٥)

حض الإسلام على الإنفاق فى سبيل الله وجعل سبحانه وتعالى حقا للطبقات الفقيرة فى أموال الأغنياء، ويعتبر الإنفاق من أعظم وسائل تقوية التكافل الاجتماعى في الإسلام، وحدد الإسلام وجوه ذلك الإنفاق ومن تجوز عليهم النفقة.
يستفتيك المؤمنون – أيها الرسول – ماذا يتصدقون؟ وعلى من يتصدقون؟ فقل لهم: أي صدقة منكم قلّت أو كثرت فالأولى بها القريب، ثم الفقير. ثم الغريب المنقطع، واعلموا أن فعلكم للخير قليلا أو كثيرا محفوظ لكم عند الله، والله عالم به محصيه لكم، ويعلم المخلص فيه من المرائي، وسوف يُوفى كلٌ بعمله[٤١].

---

[٤١] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

وهنا يسأل المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أى شيء ينفقونه من أصناف الأموال؟ قل لهم: ما أنفقتم من أموالكم فاجعلوه للوالدين قبل غيرهما ليكون أداء لحق تربيتهما، ووفاء لبعض حقوقهما، وللأقربين وفاء لحق القرابة والرحم، ولليتامى لأنهم فقدوا الأب الحانى الذى يسد عوزهم، والمساكين لفقرهم واحتياجهم، وابن السبيل لأنه كالفقير لغيبة ماله وانقطاعه عن بلده.
ولما فصّل سبحانه هذا التفصيل الحسن الكامل الشامل، أتبعه بعد ذلك بالإجمال "وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم" سواء مع من ذكر فى الآيات أو مع غيرهم.
وتأتى آية "النفقة " للحض على بذل المال لطلب الآجل، وللتخفيف من العاجل، وأن يكون بحيث يبذل النفس والمال ليكون من أعلى القربات، وأعظم الطاعات.
وتظل هذه الآية القرآنية المحكمة من معالم الإنفاق ومن أسس التكافل الاجتماعى، وصورة مضيئة عن صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى سخائهم وبذلهم وكرمهم وجودهم وسعيهم لأسمى تجارة رابحة، لمثل هذا فليعمل العاملون، وليتنافس المتنافسون[٤٢].

يعرض الحق سبحانه وتعالى قضية شاعت في هذه الصورة وهي ظاهرة سؤال المؤمنين عن الأشياء، وهي ظاهرة إيمانية صحية، وكان في استطاعة المؤمنين ألا يسألوا عن أشياء لم يأتي فيها تكليف إيماني خوفاً من أن يكون في الإجابة عنها تقييد للحركة، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم» :ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة

---

[٤٢] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه[٤٣].
ورغم ذلك كانوا يسألون عن أدق تفاصيل الحياة، وكانت هذه الظاهرة تؤكد أنهم عشقوا التكليف من الله؛ فهم يريدون أن يبنوا كل تصرفاتهم بناءً إسلامياً، ويريدون أن يسألوا عن حكم الإسلام في كل عمل ليعملوا على أساسه.
والسؤال عن "مَاذَا يُنْفِقُونَ"؛ فكأن الشيء المُنْفق هو الذي يسألون عنه، والإنفاق كما نعرف يتطلب فاعلاً هو المُنْفق؛ والشيء المُنفَق هو المال؛ ومنفَقاً عليه. وهم قد سألوا عن ماذا ينفقون، فكأن أمر الإنفاق أمر مُسَلَّمٌ به، لكنهم يريدون أن يعرفوا ماذا ينفقون؟ فيأتي السؤال على هذه الوجه ويجيء الجواب حاملا الإجابة عن ذلك الوجه وعن أمر زائد[٤٤].
يقول الحق: "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ"هذا هو السؤال، والجواب "قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ". إن الظاهر السطحي يظن أن السؤال هو فقط عن ماذا ينفقون؟ وأن الجواب جاء عن المنفق عليه. نقول: لا، لماذا نسيت قوله الحق: إن الإنفاق يجب أن كون من (خير) فالمال المُنفق منه لابد أن يتصف بأنه جاء من مصدر خير.
وبعد ذلك زاد وبيّن أنه: مادمتم تعتقدون أن الإنفاق واجب فعليكم أن تعلموا ما هو الشيء الذي تنفقونه، ومَنْ الذي يستحق أن يُنْفَقَ عليه. "قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ". والخير هو الشيء الحسن النافع. والمُنْفَق عليه هو دوائر الذي يُنْفِق؛ لأن الله يريد أن يُحَمّل المؤمن دوائره الخاصة، حتى تلتحم الدوائر

---

[٤٣] أخرجه الإمام مسلم والنسائى وابن ماجة والإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة
[٤٤] **تفسير الشعراوى ج١٢ ص٩٣٠- ٩٣٥**

مع بعضها فيكون قد حمّل المجتمع على كل المجتمع، لأنه سبحانه حين يُحَمّلني أسرتي ووالدي والأقربين، فهذه صيانة للأهل، وكل واحد منا له والدان وأقربون، ودائرتي أنا تشمل والديّ وأقاربي، ثم تشيع في أمر آخر؛ في اليتامى والمساكين. والإنفاق يقتضي إخراج المال عن ملكية الإنسان ببيع أو هبة أو صلة، وأصل كلمة (الإنفاق) مأخوذ من (نفقت السوق) أي راجت؛ لأن السوق تقوم على البضاعة، وحين تأتي إلى السوق ولا تجد سلعاً فذلك يعني أن السوق رائجة، ولكن عندما تجد البضائع مكدسة بالسوق فذلك يعني أن السوق لازالت قائمة. إذن فمعنى (نفقت السوق) أي ذهبت كل البضائع كما تذهب الحياة من الدابة، فعندما نقول: نفقت الدابة، أي ماتت، وأوجه الإنفاق بينها سبحانه في قوله: "فَلِلْوَالِدَيْنِ والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل". فهل كل يتيم محتاج؟ ربما يكون اليتيم قد ورث المال لكن علينا أن نفهم أن المسألة ليست هي سد حاجة محتاج فقط، ولكنها الوقوف بجانب ضعيف في أي زاوية من زوايا الضعف؛ لأن الطفل عندما يكون يتيماً ولديه ماله، ثم يراك تعطف عليه فهو يشعر أن أباه لم يمت؛ لأن أبوته باقية في إخوانه المؤمنين، وبعد ذلك لا يشب على الحسد لأولاد آباؤهم موجودين[٤٥].

لكن حين يرى اليتيم كل أب مشغولا بأبنائه عن أيتام مات أبوهم، هنا يظهر فيه الحقد، وتتربى فيه غريزة الاعتراض على القدر، فيقول (لماذا أكون أنا الذي مات والدي؟)، ولكن حين يرى الناس جميعا آباءه، ويصلونه بالبسمة والود والترحاب والمعونة فلسوف يشعر أن من له أب واحد يتركه الناس اعتماداً على وجود أبيه، لكن حينما يموت أبوه فإن الناس

---

[٤٥] المصدر السابق - تفسير الشعراوى

تلتفت إليه بالمودة والمحبة، ويترتب على ذلك أن تشيع المحبة في المجتمع الإسلامي والألفة والرضا بقدر الله، ولا يعترض أحد على وفاة أبيه، فإن كان القدر قد أخذ أباه فقد ترك له آباء متعددين.

وبعد الإنفاق على اليتامى نجد الإنفاق على المساكين وابن السبيل، وقد عرفنا أن المسكين هو المحتاج وابن السبيل هو المنقطع عن أهله وماله.

ويختم الحق هذه الآية بقوله: "وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ"، إن الله يريد أن يرد الطبع البشري إلى قضيةٍ هي: إياك أن تطلب جزاء الخير الذي تفعله مع هؤلاء من أحد من الخلق، ولكن اطلبه من الله، وإياك أن تحاول أن يعلم الناس عنك أنك مُنْفِق على الأقارب واليتامى وابن السبيل؛ لأن الذين تريدهم أن يعلموا لا يقدرون لك على جزاء، وعلمهم لن يزيدك شيئا، وحسبك أَنْ يعلم الله الذي أعطاك، والذي أعطيت مما استخلفك فيه ابتغاء مرضاته. فحين ينفق الناس لمرضاة الناس، يلقون من بعد ذلك النكران والجحود فيكون من أعطى قد خسر ما أنفق، واستبقى الشر ممن أنفقه عليهم.

ولو أن الإنسان المسلم قصد بالإنفاق وعمل الخير مرضاة الخالق الأعلى عز وجل لاستبقى ما أنفق من حسنات وثواب ليوم القيامة، ولسخر الله له قلوب من تصدق عليهم بالمحبة والوفاء بالمعروف[٤٦].

إن قوله تعالى: "يسألونك ماذا ينفقون"، متصل بما قبله في المغزى؛ فإن الآيات السابقة دلت على أن حب الناس لزينة الحياة الدنيا هو الذي أغراهم بالشقاق والخلاف، وأن أهل الحق

---

[٤٦] المصدر السابق - تفسير الشعراوى

والدين هم الذين يتحملون البأساء والضراء في سبيل الله وابتغاء مرضاته، ومنها ما يصيبهم في أنفسهم وأموالهم، وذلك مما يرغب الإنسان في الإنفاق في سبيل الله، وبذل المال كبذل النفس كلاهما من آيات الإيمان، فكأن السامع لما تقدم تتوجه نفسه إلى البذل فيسأل عن طريقه، فجاء بعده السؤال مقرونا بالجواب[٤٧].

والخير هو المال، والتعبير عن المال بالخير يتضمن كونه حلالا، فكأنه قال: إن الإنفاق والتصدق يكون من فضل المال الكثير الحلال الطيب، وأما بيان المصرف فهو قوله: "فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل" قدم الوالدين لمكانتهما، وفسروا الأقربين بالأولاد وأولادهم.

ولا شك أن أقرب الناس إلى المرء أولاده إن وجدوا، وإلا كان أقربهم إليه بعد والديه إخوته، وما اختير لفظ الأقربين هنا إلا لبيان أن العلة في التقديم القرابة، فمن كان أقرب كان أحق بالتقديم.

وكأن الذين حملوا لفظ الأقربين على الأولاد خاصة أرادوا جعل الآية للنفقة الواجبة في الفقه، وهي تجب للوالدين والأولاد عند الحاجة بالإجماع، والنفقة في الآية أعم، وهؤلاء اليتامى والمساكين لا يجب على فرد معين من المكلفين الإنفاق على يتيم أو مسكين معين منهم من حيث إنه يتيم أو مسكين، ولكنهم أحق بالصدقة المفروضة والمندوبة بعد الأقربين، فالآية عامة في النفقة وأحق الناس بها.

---

[٤٧] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده الجزء الرابع فى تفسير القرآن ص ٥٧٠ إلى ٥٧٣

ثم قال تعالى: "وما تفعلوا من خير" كالإنفاق في موضعه بتقديم الأحق فالأحق به ممن ذكر، وهو ما يوجد في كل زمان ومكان، وممن لم يذكر في هذه الآية وذكر في غيرها، كالرجل تعرض له الحاجة فتدفعه إلى السؤال - لا من يتخذ السؤال حرفة وهو قادر على الكسب[٤٨].

إن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى أن مما يعينهم على دفع الأذى وعلى دحر أعدائهم أن يبذلوا أموالهم في طاعة الله، وأن يعدوا أنفسهم[٤٩].
وظاهر الآية - كما يقول الآلوسي - أن السؤال عن المنفق فأجاب بيان المصرف صريحاً، لأنه أهم لأن اعتداد النفقة باعتباره . وأشار - سبحانه - إجمالا إلى بيان المنفق فإن قوله {مِنْ خَيْرٍ} يتضمن كونه حلالا إذ لا يسمى ما عداه خيرا ، وإنما تعرض لذلك - أي لبيان المنفق عليه - وليس في السؤال ما يقتضيه ، لأن السؤال للتعلم لا للجدل، وحق المعلم فيه أن يكون كطبيب رفيق يتحرى ما فيه الشفاء، طلبه المريض أم لم يطلبه . ولم يتعرض - سبحانه - هنا لبقية المحتاجين كالسائلين والغارمين إما اكتفاء بذكرهم في مواضع أخرى ، وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله - قوله - تعالى - : في آخر الآية { وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ } فإنه شامل ككل خير واقع في أي مصرف كان.
وإذا كان بعضنا يكثر من عمل الخير عندما يعلم أن شخصا ذا جاه يسره هذا العمل ، فكيف يكون الحال عندما يعلم المؤمن

---

[٤٨] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده
[٤٩] **التفسير الوسيط – محمد سيد طنطاوي**

التقي أن الذي يرى عمله ويكافئه عليه هو الله الذي لا يخفى عليه خافية ، والذي يعطي من يشاء بغير حساب[٥٠].

لقد وردت آيات كثيرة في الإنفاق سابقة على هذا السؤال، فالإنفاق في مثل الظروف التي نشأ فيها الإسلام ضرورة لقيام الجماعة المسلمة في وجه تلك الصعاب والمشاق والحرب التي كانت تواجهها وتكتنفها؛ ثم هو ضرورة من ناحية أخرى، وهى التضامن والتكافل بين أفراد الجماعة؛ وإزالة الفوارق الشعورية بحيث لا يحس أحد إلا أنه عضو في ذلك الجسد، لا يحتجن دونه شيئا، ولا يحتجز عنه شيئا، وهو أمر له قيمته الكبرى في قيام الجماعة شعوريا، إذا كان سد الحاجة له قيمته في قيامها عمليا[٥١].
وهنا يسأل بعض المسلمين: "ماذا ينفقون؟".
وهو سؤال عن نوع ما ينفقون، فجاءهم الجواب يبين صفة الإنفاق؛ ويحدد كذلك أولى مصارفه وأقربها: "قل ما أنفقتم من خير".
ولهذا التعبير إيحاءان الأول أن الذي ينفق خير، خير للمعطى وخير للجماعة وخير في ذاته فهو عمل طيب، وتقدمة طيبة، وشيء طيب، والإيحاء الثاني أن يتحرى المنفق أفضل ما عنده فينفق منه؛ وخير ما لديه فيشارك الآخرين فيه، فالإنفاق تطهير للقلب وتزكية للنفس، ثم منفعة للآخرين وعون ، وتحرى

---

[٥٠] التفسير الوسيط – محمد سيد طنطاوي

[٥١] في ظلال القرآن – سيّد قطب ص ٢٢٢

الطيب والنزول عنه للآخرين هو الذي يحقق للقلب الطهارة، وللنفس التزكية، وللإيثار معناه الكريم.
على أن هذا الإيحاء ليس إلزاما، فالإلزام كما ورد في آية أخرى أن ينفق المنفق من الوسط لا أردأ ولا أغلى ما عنده، ولكن الإيحاء هنا يعالج تطويع النفس لبذل ما هو خير والتحبيب فيه على طريقة القرآن الكريم في تربية النفوس وإعداد القلوب، أما طريق الإنفاق ومصرفه فيجيء بعد تقرير نوعه، "فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ".
وهو يربط بين طوائف من الناس، بعضهم تربطه بالمنفق رابطة العصب، وبعضهم رابطة الرحم، وبعضهم رابطة الرحمة، وبعضهم رابطة الإنسانية الكبرى في إطار العقيدة، وكلهم يتجاوزون في الآية الواحدة الوالدون والأقربون واليتامى والمساكين وابن السبيل، وكلهم يتضامنون في رباط التكافل الاجتماعي الوثيق بين بني الإنسان في إطار العقيدة المتين[٥٢].
ولكن هذا الترتيب في الآية، وفي الآيات الأخرى، والذي تزيده بعض الأحاديث النبوية تحديدا ووضوحا كالذي جاء في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل: "ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي القربى، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء، فهكذا وهكذا".
هذا الترتيب يشي بمنهج الإسلام الحكيم البسيط في تربية النفس الإنسانية وقيادتها، إنه يأخذ الإنسان كما هو بفطرته وميوله الطبيعية، واستعداداته ثم يسير به من حيث ما هو كائن، ومن حيث هو واقف يسير به خطوة خطوة صعدا في

---

[٥٢] في ظلال القرآن – سيّد قطب

المرتقى العالي على هينة وفي يسر فيصعد وهو مستريح، وهو يلبي فطرته وميوله واستعداداته، وهو ينمي الحياة معه، ويرقيها، ولا يحس بالجهد والرهق، ولا يُكبل بالسلاسل والأغلال ليجر في المرتقى أولا، ولا تكبت طاقاته وميوله الفطرية ليحلق ويرف وللا يعتسف به الطريق اعتسافا، ولا يطير به طيرانا من فوق الآكام، إنما يصعدها به صعودا هينا لينا وقدماه على الأرض، وبصره معلق بالسماء، وقلبه يتطلع إلى الأفق الأعلى، وروحه موصولة بالله في علاه.
ولقد علم الله أن الإنسان يحب ذاته فأمره أولا بكفايتها قبل أن يأمره بالإنفاق على من سواها، وأباح له الطيبات من الرزق، وحثه على تمتيع ذاته بها من غير ترف ولا مخيلة، فالصدقة لا تبدأ إلا بعد الكفاية، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن تعول"[٥٣].

وعن جابر رضى الله عنه قال: "جاء رجل بمثل بيضة من ذهب فقال: يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة لا أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال: مثل ذلك فأعرض عنه، فآتاه من قبل ركنه الأيسر فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه، ثم أتاه من خلفه، فقال مثل ذلك فأخذها صلى الله عليه وسلم، فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته، وقال: يأتى أحدكم بما يملك فيقول هذه صدقة ثم يقعد يتكفف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى"[٥٤].

---

[٥٣] أخرجه مسلم
[٥٤] أخرجه أبو داوود

ولقد علم الله أن الإنسان يحب، أو ما يحب أفراد أسرته الأقربين، عياله ووالديه، فسار به خطوة في الإنفاق وراء ذاته إلى هؤلاء الذين يحبهم ليعطيهم من ماله وهو راض فيرضي ميله الفطري الذي لا ضير منه، بل فيه حكمة وخير، وفي الوقت ذاته يعول ويكفل ناسا هم أقربائه الأدنون، نعم ولكنهم فريق من الأمة إن لم يعطوا احتاجوا، وأخذهم من القريب أكرم لهم من أخذهم من البعيد، وفيه في الوقت ذاته إشاعة للحب والسلام في المحضن الأول وتوثيق لروابط الأسرة التي شاء الله أن تكون اللبنة الأولى في بناء الإنسانية الكبير.
ولقد علم الله أن الإنسان يمد حبه وحميته بعد ذلك إلى أهله كافة، بدرجاتهم منه وصلتهم به، ولا ضير في هذا، فهم أفراد من جسم الأمة وأعضاء في المجتمع، فسار به خطوة أخرى في الإنفاق وراء أهله الأقربين، تساير عواطفه وميوله الفطرية، وتقضى حاجة هؤلاء، وتقوّي أواصر الأسرة البعيدة، وتضمن وحدة قوية من وحدات الجماعة المسلمة، مترابطة العرى وثيقة الصلات[٥٥].

وعندما يفيض ما في يده عن هؤلاء وهؤلاء بعد ذاته، فإن الإسلم يأخذ بيده لينفق على طوائف من المجموع البشري، يثيرون بضعفهم أو حرج موقفهم عاطفة النخوة وعاطفة الرحمة وعاطفة المشاركة، وفي أولهم اليتامى الصغار الضعاف؛ ثم المساكين الذين لا يجدون ما ينفقون، ولكنهم يسكتون فلا يسألون الناس كرامة وتجملا؛ ثم أبناء السبيل الذين قد يكون لهم مال، ولكنهم انقطعوا عنه، وحالت بينهم وبينه الحوائل، وقد كانوا كثيرين في الجماعة المسلمة هاجروا

---

[٥٥] في ظلال القرآن – سيّد قطب

من مكة تاركين وراءهم كل شيء، وهؤلاء جميعا أعضاء في المجتمع؛ والإسلام يقود الواجدين إلى الإنفاق عليهم، يقودهم بمشاعرهم الطيبة الطبيعية التي يستجيشها ويزكيها، فيبلغ إلى أهدافه كلها في هوادة ولين، يبلغ أولا إلى تزكية نفوس المنفقين، فقد أنفقت طيبة بما أعطت، راضية بما بذلت متجهة إلى الله في غير ضيق ولا تبرم، ويبلغ ثانيا إلى إعطاء هؤلاء المحتاجين وكفالتهم، ويبلغ ثالثا إلى حشد النفوس كلها متضامنة متكافلة في غير ما تضرر ولا تبرم قيادة لطيفة مريحة بالغة ما تريد، محققة كل الخير بلا اعتساف ولا افتعال ولا تشديد، ثم يربط هذا كله بالأفق الأعلى فيستجيش في القلب صلته بالله فيما أعطى وفيما يفعل، وفيما يضمر من نيّة وشعور[٥٦].

"وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم"
عليم به، وعليم بباعثه، وعليم بالنية المصاحبة له، وهو إذن لا يضيع فهو في حساب الله الذي لا يضيع عنده شيء والذي لا يبخس الناس شيء ولا يظلمهم، والذي لا يجوز عليه كذلك الرياء والتمويه.

بهذا يصل بالقلوب إلى الأفق الأعلى وإلى درجة الصفاء والخلوص والتجرد لله في رفق وفي هوادة وفي غير معسفة ولا اصطناع، وهذا هو المنهج التربوي الذي يرعاه العليم الخبير، ويقيم عليه النظام الذي يأخذ بيد الإنسان كما هو ويبدأ به من حيث هو، ثم ينتهى به إلى آماد وآفاق لا تصل إليها

---

[٥٦] نفس المصدر

البشرية قط بغير هذه الوسيلة، ولم تبلغ إليها قط إلا حين سارت على هذا المنهج وهذا الطريق[٥٧].

أسباب نزول الآية
سأل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، رسول الله صلى الله عليه وسلم، أين يضعون أموالهم؟ فأنزل الله تعالى قوله: "يسألونك". وروى أن عمرو بن الجموح – رضى الله عنه – كان شيخا، وعنده مال كثير، فقال: يا رسول الله بماذا نتصدق، وعلى من ننفق؟ فنزلت الآية.

[٥٧] في ظلال القرآن – سيّد قطب

السؤال الخامس

- الخمر والميسر -

-

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا "

(سورة البقرة – آية ٢١٩)

جاء تحريم الإسلام للخمر تدريجيا، وبمناسبة حوادث متعددة، لما كان للعرب من ولع بشربها قبل تحريمها، والبعض يبرر شربها بأنها تشعره بالدفء خاصة فى فصل الشتاء، والدراسات العلمية الحديثة أثبتت أن شرب الخمر من أهم أسباب حدوث الوفيات الناتجة عن انخفاض درجة حرارة جسم الإنسان، ما يؤكد على النص القرآنى الذى يوضح أن الإثم فيها أكبر من النفع الدنيوى الزائل.

حكمة التدرج في تحريم الخمر

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبنى مجتمعا جديدا فاضلا له نظمه وعقائده وتشريعاته التي تخالف كثيرا ما كان عليه العرب قبل بعثته، والطفرة في بناء مجتمع جديد مستحيلة، وتكليف أتباع الدين الجديد بكل ما يريده الله منهم دفعة واحدة حين يدخلون في الإسلام، لاسيما وهو في دور البناء أمر فوق

الطاقة، ولابد من أخذ هذا المجتمع بالتدريج، وضع الأساس أولا بالعقائد، ثم يفرع عليه التشريعات شيئا فشيئا، وهكذا كانت حكمة الله في إيجاد هذه الأمة وتربيتها في نشأتها والقرآن ينزل الوقت بعد الوقت ليشرع ما يناسب من تشريعاته فيأخذ المسلمون أنفسهم بما نزل دون أن يشق عليهم ذلك[٥٨].

ولو نزل القرآن جملة واحدة لنزل فيه الأمر بالعقائد والتشريعات كلها دفعة واحدة، وكان القوم سيعجزون وهم في أول أمرهم بالإسلام، وفي حاجة إلى أخذهم بالرفق والتدريب، وقد رأينا كيف عالج القرآن أمرهم في شرب الخمر بالتدريج، ولو كانت الحكمة فى غير التدريج لكان، ولكن الله فعل ما تقتضيه حكمته القائمة على علمه وخبرته بالنفوس، فهل كان يتسنى للقرآن الأخذ بهذه الحكمة لو أنه نزل جملة واحدة؟.

حقيقة يولد الإنسان ويشب حتى يبلغ فيكلف بكل ما في القرآن، ولكنه مسلم وابن لمسلم وشبّ وتربى في جو إسلامى وتعود في صغره على آداب الإسلام وتشريعاته، فلا يصعب عليه القيام بعد ذلك بتكاليفه، فالأمر يختلف عن من ندعوه لينسلخ من شركه في بدء الدعوة لينضم لزمرة المؤمنين والدعوة غريبة ولها أعداؤها، فلابد من التدرج في التكاليف بما يتناسب وحالة الداخلين الجدد في الإسلام[٥٩].

يستفتونك يا رسول الله عن حكم شرب الخمر ولعب القمار، قل: فيهما ذنب كبير وضرر كثير، ولو أن فيهما ربحا ماديا قليلا

---

[٥٨] **علوم القرآن الكريم - الدكتور عبدالمنعم النمر ص٨٥**

[٥٩] نفس المصدر - علوم القرآن الكريم - الدكتور عبدالمنعم النمر

ولكنه لا يساوي ما فيهما من شر خطر، وإثم عظيم، فإثم من شرب المسكر ولعب القمار يشمل ذهاب العقل وقد يصل إلى إزهاق الروح، وسفك الدم، وخراب البيوت، وذهاب الأسر، وهتك الأعراض وغيرها[٦٠].

ويري كثير من العلماء أن هذه الآية هي أول آية نزلت في الخمر، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ " (الأية ٤٣).
ثم نزلت الآية التي في سورة المائدة " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (الأية ٩٠).
والدليل علي ذلك ما رواه أبوداود وغيره عن عمر بن الخطاب أنه قال : "اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا" فنزلت هذه الآية "يسلونك عن الخمر" فدعي عمر فقرئت عليه فقال : "اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا"، فنزلت الآية التي في سورة النساء "يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكاري" فكان منادي رسول الله صلي الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة نادي أن: لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرأت عليه، فقال: "اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا"، فنزلت الآية التي في سورة المائدة، فدعي عمر فقرأت عليه، فلما بلغ "فهل أنتم منتهون"، فقال عمر: "انتهينا"[٦١].

---

[٦٠] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

[٦١] مقال للإمام الأكبر محمد سيّد طنطاوى في جريدة الأهرام بعنوان هذا هو الإسلام : حديث القرآن الكريم عن النبي صلى الله وعليه وسلم

ولقد كان موقف الصحابة من هذا التحريم لما يشتهونه ويحبونه من الخمر والميسر، يمثل أسمي ألوان الطاعة والاستجابة لأوامر الله ونواهيه، فعندما بلغهم تحريم الخمر أراقوا ما عندهم منها في الطرقات، بل وحطموا الأواني التي كانت توضع فيها الخمر امتثالا وطاعة لله تعالي.

وهكذا نري قوة الإيمان التي غرسها الإسلام في نفوس أتباعه عن طريق تعاليمه السامية، وتربيته الحكيمة، تغلبت علي ما أحبته النفوس وأزالت من القلوب ما ألفته الطبائع.

وأطلق سبحانه الإثم وقيد المنافع بأنها للناس، للتنبيه علي أن الإثم في الخمر والميسر ذاتي، فهما في ذاتهما رجس كبير، وخطر وبيل، وأن ما فيهما من منافع ضئيل ولا يتجاوز بعض الناس، فهي منافع خاصة وليست عامة، "وإثمهما أكبر من نفعهما" أي أن المفاسد والأضرار التي تترتب علي تعاطيهما، أعظم من المنافع التي تنشأ عن تعاطيهما، إذ تعاطيهما يؤدي إلي منفعة بعض الناس، أما مضارهما فكثيرة، من ذلك أن تعاطي الخمر يضعف الضمير، ويفسد الأخلاق، ويميت الحياء، ويفقد الرشد ويتلف المال، ويغري بالتنازع بين الناس، ويتسبب في كثير من الأمراض[٦٢].

أما تعاطي الميسر فمن مضاره ـ كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ إفساد التربية بتعويد النفس الكسل، وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القوة العقلية، بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية، وإهمال المقامرين للزراعة والتجارة والصناعة التي هي أركان العمران، وتخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغني إلي الفقر في ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت في العز والغني وانحصرت ثروتها في

---

[٦٢] مقال للإمام الأكبر محمد سيّد طنطاوى

رجل أضاعها عليها في ليلة واحدة، فأصبحت غنية وأمست فقيرة[٦٣].
إذن فالمنافع الدنيوية التي تعود إلي بعض الناس من تعاطي الخمر والميسر لا تساوي شيئا بجانب تلك المضار الجسيمة التي تعود علي أفراد الأمة في دينهم وعقولهم وأجسامهم وأموالهم وترابطهم، وصدق الله إذ يقول: "إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون".

والخمر مأخوذة من الستر، ويقال: "دخل فلان خمرة" أي في أيكة من الأشجار ملتفة فاختبأ فيها، و"الخمار" هو القناع الذي ترتديه المسلمة لستر رأسها، وهو مأخوذ أيضا من نفس المادة، و"خامرة الأمر" أي خالطه، وكل هذه المعاني مأخوذة من عملية الستر. و"الميسر" مأخوذ من اليسر؛ لأنه يظهر للناس بمكاسب يسيرة بلا تعب[٦٤].
والخمر والميسر من الأمور التي كانت معروفة في الجاهلية، والإسلام حين جاء ليواجه نظما جاهلية واجه العقيدة بلا هوادة، ولم يجابهها ويواجهها على مراحل بل أزالها من أول الأمر، ورفع راية "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ثم جاء الإسلام في الأمور التي تعتبر من العادات فبدأ يهونها؛ لأن الناس كانت تألفها، لذلك أخذها بشيء من الرفق والهوادة.
وكان هذا من حكمة الشرع، فلم يجعل الأحكام في أول الأمر عملية قسرية فقد يترتب عليها الخلل في المجتمع وفي الوجود كله، وإنما أخذ الأمور بالهوادة، وإذا كانت الخمرة مأخوذة من

---

[٦٣] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده
[٦٤] **تفسير الشعراوى ج١٢ ص٩٥٢- ٩٦٠**

الستر، فماذا تستر؟ إنها تستر العقل بدليل أن من يتعاطاها يغيب عن وعيه.
ولا يريد الله سبحانه وتعالى للإنسان الذي كرمه الله بالعقل أن يأتي للشيء الذي كرمه به ويسير به أمور الخلافة في الأرض ويستره ويغيبه، لأن من يفعل ذلك فكأنه رد على الله النعمة التي أكرمه بها، وهذا هو الحمق.
ثم إن كل الذين يتعاطون الخمر يبررون فعلهم بأنهم يريدون أن ينسوا هموم الدنيا، والسؤال الموجه لهؤلاء: هل نسيان الهموم يمنع مصادرها؟ بالتأكيد الإجابة: لا، ولذلك فالإسلام يطلب منك أن تعيش همومك لتواجهها بجماع عقلك، فإذا كانت هناك هموم ومشكلات فالإسلام لا يريد منك أن تنساها، لا، بل لابد أن توظف عقلك في مواجهتها، ومادام المطلوب منك أن تواجه المشكلات بعقلك فلا تأتي لمركز إدارة الأمور الحياتية وهو العقل، والذي يعينك على مواجهة المشكلات وتقهره بتغييبه عن العمل[٦٥].
وهل النسيان يمنع المصائب؟، إن الذي يمنع المصائب هو أن تحاول بجماع فكرك أن تجد السبيل للخروج منها، فإذا كان الأمر ليس في استطاعتك فمن الحمق أن تفكر فيه؛ لأن الله يريد منك أن تريح عقلك في مثل هذه الأمور، وإن كان الأمر له حل وفي استطاعتك حله، فأنت تحتاج للعقل بكامل قوته.
والحق سبحانه وتعالى يرشدنا في هذه القضية بحكمة الحكيم، ويعطينا عطاء لنحكم نحن في الأمر قبل أن يطلب منا، إنه سبحانه يمتن علينا ويقول: "ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا" من الآية ٦٧ سورة النحل

---

[٦٥] المصدر السابق - تفسير الشعراوى

فعندما ذكر الله "سكراً" مر عليها بلا تعليق، وعندما قال: "رزقاً" وصفه بأنه "حسناً" فكان يجب أن نتنبه إلى أن الله يمهد لموقف الإسلام من الخمر؛ فهو لم يصف "السكر" بأي وصف، وجعل للرزق وصفا هو الحسن؛ فالناس عندما يستخرجون من هذه الثمرات سكراً، فهم قد أخرجوها عن الرزق الحسن، لأن هناك فرقا بين أن تأخذ من العنب غذاءً، وأن تخمره فتفسده وتجعله ساتراً للعقل.

وبعد ذلك فهناك فرق بين تشريع ونصح، فعندما تنصح شخصا فأنت تقول له: سأدلك على طريق الخير وأنت حر في أن تسير فيه أو لا تسير، وعندما تشرع وتضع الحكم، فأنت تأمر هذا الشخص أو ذاك بأن يفعل الأمر ولا شيء سواه.

والحق سبحانه وتعالى عندما قال: "يسألونك عن الخمر والميسر"، ذكر لنا المفاسد وترك لنا الحكم عليها، قال سبحانه مبلغاً رسوله: "قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس"، ولو لم يقل "ومنافع للناس" لاستغرب الناس، وقالوا: نحن نأخذ من الخمر منافع، ونكتسب منها، وننسى بها همومنا، كانت هذه هي المنافع بالنسبة لهم، لكن الحق يوضح أن إثمهما أكبر من نفعهما، أي أن العائد من وراء تعاطيهما أقل من الضرر الحادث منهما، وهذا تقييم عادل، فلم تكن المسألة قد دخلت في نطاق التحريم، لأنها مازالت في منطقة النصح والإرشاد[٦٦].

وقوله تعالى: "وإثمهما أكبر من نفعهما" يجعل فيهما نوعا من الذنب، لقد كان التدرج في الحكم أمراً مطلوباً لأنه سبحانه يعالج أمراً بإلف العادة، فيمهد سبحانه ليخرجه عن العادة، والعادة شيء يقود إلى الاعتياد؛ بحيث إذا مر وقت ولم يأت ما تعودت عليه نفسيتك ودمك يحدث لك اضطراب.

---

[٦٦] نفس المصدر تفسير الشعراوى

ومادامت المسألة تقود إلى الاعتياد، فالأفضل أن تسد الباب من أوله وتمنع الاعتياد.

لقد كانت بداية الحكم في أمر الخمر أن أحداً من المسلمين شرب الخمر قبل أن تحرم نهائياً، وجاء ليصلي، فقال: "قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون"، وبعدها نزل تأديب الحق بقوله: "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون". من الآية ٤٣ سورة النساء

وفي ذلك تدريب لمن اعتاد على الخمر ألا يقربها؛ فالإنسان الذي يصلي صدر عليه الحكم ألا يقرب الصلاة وهو سكران، فمتى يمتنع إذن؟ إنه يصحو من نومه فلا يقرب الخمر حتى يصلي الصبح، ويقترب الظهر فيستعد للصلاة، ثم العصر بعد ذلك، ويليه المغرب فالعشاء، أي لن يصبح عنده وقت ليشرب في الأوقات التي ينتظر فيها الصلاة، إذن فلا تصبح عنده فرصة إلا في آخر الليل، فإذا ما جاء الليل يشرب له كأساً ثم يغط في نومه.

ويكون الوقت الذي امتنع فيه عن الخمر أطول من الوقت الذي يتعاطى فيه الخمر، ولما بدأ تعودهم على الخمر يتزعزع، حدثت بعض الخلافات والمشكلات التي دفعتهم لأن يطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوضح لهم حكماً فاصلاً في الخمر فنزل قوله تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ"[٦٧]، فقالوا: انتهينا يا رب.

---

[٦٧] سورة المائدة – آية ٩٠، ٩١

إذن فالحق سبحانه وتعالى أراد بتحريم الخمر أن يحفظ على الإنسان عقله؛ لأن العقل هو مناط التكليف للإنسان، وهو مناط الاختيار بين البدائل، فأراد الحق أن يصون للإنسان تلك النعمة.
إن هدف الدين في المقام الأول سلامة الضرورات الخمس التي لا يستغني عنها الإنسان وهى: سلامة النفس، وسلامة العرض، وسلامة المال، وسلامة العقل، وسلامة الدين. وكل التشريعات تدور حول سلامة هذه الضرورات الخمس، ولو نظرت إلى هذه الضرورات تجد أن الحفاظ عليها يبدأ من سلامة العقل، فسلامة العقل تجعله يفكر في دينه، وسلامة العقل تجعله يفكر في حركة الحياة، وسلامة العقل تجعله يحتاط لصيانة العرض[٦٨].
إذن فالعقل هو أساس العملية التكليفية التي تدور حولها هذه المسألة، والحق سبحانه وتعالى يريد ألا يخمر الإنسان عقله بأي شيء مسكر، حتى لا يحدث عدوان على هذه الضرورات الخمس، وقد جمع الله في هذه الآية بين الخمر والميسر، وهو جل وعلا يريد أن يحمي غفلة الناس.
فلعب الميسر يتمثل في صورته البسيطة في اثنين يجلسان أمام بعضهما البعض، وكل واحد منهما حريص على أن يأخذ ما في جيب الآخر، فأي أخوة تبقى بين هؤلاء؟ إن كلاً منهما حريص على أن يعيد الآخر إلى منزله خاوي الجيوب فأي أخوة تكون بين الاثنين؟ ومن العجيب أنك ترى الذين يلعبون الميسر في صورة الأصحاب، ويحرص كل منهما على لقاء الآخر، فأي خيبة في هذه الصداقة؟ !
ومن العجيب أن يقر كل من الطرفين صاحبه على فعله، يأخذ ماله ويبقى على صداقته، والعجيب الأكبر هو التدليس والسرقة

---

[٦٨] نفس المصدر تفسير الشعراوى

بين الذين يتعودون على لعب الميسر، ولو لاحظت حياة هؤلاء الذين يلعبون الميسر تجدهم ينفقون ويبذرون بلا احتياط ولا ينتفعون أبداً بما يصل أيديهم من مال مهما كان كثيراً، لماذا؟ لأن المال حين يكتسب بيسر، يصرف منه بلا احتياط، هذا هو حال من يكسب، أما بالنسبة للخاسر فتجده يعيش في الحسرة والألم على ما فقد، وتجده في فقر دائم، وربما اضطر إلى التضحية بعرضه وشرفه، إن لم يبع ملابسه، وأعز ما يملك، ويحدث كل ذلك بأمان زائفة، وآمال كاذبة يزينها الشيطان للطرفين، الذي كسب والذي خسر، فالذي كسب يتمنى زيادة ما معه من مال أكثر وأكثر، والذي خسر يأمل أن يسترد ما خسره ويكسب .

وعندما يتعود الإنسان أن يكسب بدون حركة فكل شيء يهون عليه، ويعتاد أن يعيش على الكسب السهل الرخيص، وحين لا يجد من يستغفله ليلعب معه ربما سرق أو اختلس، وهذا هو حال الذين يلعبون الميسر؛ أنهم أصحاب الرذائل في المجتمع، فهم الذين يرتشون ويسرقون ويعربدون، ولا أخلاق عندهم وليس لهم صاحب ولا صديق، وبيوتهم منهارة، وأسرهم مفككة، وعليهم اللعنة حتى في هيئتهم وهندامهم[٦٩].

وقد ذهب بعض الأئمة إلى أن الخمر حرمت بهذه الآية، وأن ما أتى بعدها فهو من قبيل التوكيد؛ لأن لفظ الإثم يفيد المحرم، ولكن ذهب الجمهور إلى أن التحريم كان تدريجيا، ووجهه الأستاذ الإمام بأنه المنقول والمعهود في حكمة التشريع، وقال: إن الإثم هو الضرر، فتحريم كل ضار لا يقتضي تحريم ما فيه مضرة من جهة ومنفعة من جهة أخرى؛ لذلك كانت هذه الآية

---

[٦٩] نفس المصدر تفسير الشعراوى

موضعا لاجتهاد الصحابة فترك لها الخمر بعضهم وأصر على شربها آخرون، كأنهم رأوا أنه يتيسر لهم أن ينتفعوا بها مع اجتناب ضررها، فكان ذلك تمهيدا للقطع بتحريمها، ولو فوجئوا بالتحريم مع ولوع الكثيرين بها واعتقادهم منفعتها لخشي أن يخالفوا أو يستثقلوا التكليف، فكان من حكم الله أن رباهم على الاقتناع بأسرار التشريع وفوائده ليأخذه بقوة وعقل[٧٠].

لفظ الخمر منقول من مصدر خمر الشيء بمعنى ستره وغطاه، يقال : خمرت الشيء إذا سترته وخمرت الجارية ألبستها الخمار، وهو النصيف الذي تغطي به وجهها، وتخمرت هي واختمرت. والوجه في النقل أن هذا الشراب يستر العقل ويغطيه، أو هو من خامره بمعنى خالطه، يقال: خامره الداء؛ أي : خالطه.
وقال ابن الأعرابي : إنه يقال سميت الخمر خمرا؛ لأنها تركت حتى اختمرت، واختمارها تغير رائحتها، وجميع هذه المعاني ظاهرة في هذه الأشربة المسكرة كلها كما قال ابن عبد البر، فيصح إطلاق اسم الخمر لغة على كل مسكر.

وأما الميسر فهو القمار، واشتقاقه من يسر إذا وجب، أو من اليسر بمعنى السهولة؛ لأنه كسب بلا مشقة ولا كد، أو من اليسار وهو الغنى؛ لأنه سببه للرابح، أو من اليسر بمعنى التجزئة والاقتسام، يقال : يسروا الشيء إذا اقتسموه، قال الأزهري : الميسر الجزور - الجمل - كانوا يتقامرون عليه، سمي ميسرا؛ لأنه يجزأ أجزاء، فكأنه موضع التجزئة، وكل

---

[٧٠] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده الجزء الرابع فى تفسير القرآن ص ٥٨٤

شيء جزأته فقد يسرته، والياسر الجازر أي : لأنه يجزئ لحم الجزور، ثم صار يقال للمتقامرين جازرون؛ لأنهم سبب الجزر والتجزئة، هذا هو الأصل.

الميسر كما عرفه العرب
وأما كيفيته عند العرب فهي أنه كان لهم عشرة قداح وتسمى الأزلام والأقلام، وهي الفذ، والتوءم، والرقيب، والحلس والمسبل، والمعلى، والنافس، والمنيح، والسفيح، والوغد، لكل واحد من السبعة الأولى نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء أو ثمانية وعشرين جزءا، وليس للثلاثة الأخيرة شيء، فللفذ سهم، وللتوءم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحلس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلى سبعة وهو أعلاها؛ ولذلك يضرب به المثل لمن كان أكبر حظا أو نجاحا من غيره في كل شيء مفيد له، فيقال: صاحب القدح المعلى.
وكانوا يجعلون هذه الأزلام في الربابة، وهي الخريطة، ويضعونها على يد عدل يجلجلها ويدخل يده فيخرج منها واحدا باسم رجل، ثم واحدا باسم رجل إلخ، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح لا نصيب له لم يأخذ شيئا، وغرم ثمن الجزور كله، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك[٧١].

---

[٧١] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده

السؤال السادس

ـ مقدار الإنفاق ـ

"وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"
(سورة البقرة ـ آية ٢١٩)

إن مقصد الشريعة من الإنفاق هو إقامة مصالح ضعفاء المسلمين، والعفو ميراث التقوى، والأمر بالإنفاق تمثلا فى العفو لا يقتصر على الأغنياء فقط لكنه جعل ميدانا كبيرا للصدقة والإحسان.

ويسألونك يا رسول الله ـ ما الذى يتصدقون به من أموالهم، فى وجوه البر، فقل لهم: تصدقوا بما زاد عن حاجتكم، وسهل عليكم إخراجه، ولا يشق عليكم بذله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا". صحيح مسلم، وهذا البيان فيما سألتم عنه لكى تتفكروا فى دنياكم وآخرتكم، ولعل من ثمار السؤال والجواب الإرشاد الحكيم إلى التراحم بين أفراد المجتمع، وتوجيه إلى المنهاج الوسط الذى يأبى التبذير وينفر من التقطير.

يستفتونك ماذا يتصدقون؟ وماذا يمسكون من أموالهم؟ فقل لهم: أنفقوا الميسور وتصدقوا بما زاد عن حاجتكم، فكما هداكم الله فقد وضّح لكم ما يحل أو ما يحرم، وما يجوز وما لا يجوز، وما ينفع وما يضر، فتدبروا أموركم، وتفقّهوا في دينكم لتسعدوا وتفلحوا[٧٢].

والإنفاق في سبيل الله من آيات الإيمان وشعبه اللازمة له على الإطلاق، الذي يشعر أن على المؤمن أن ينفق كل ما يملك في سبيل الله. وقد قضت الحكمة بهذا الإطلاق في أول الإسلام وبمدح الإيثار على النفس؛ لأن المسلمين كانوا فئة قليلة في أمم وشعوب وقبائل تناصبهم العداوة وتبذل في ذلك الأموال والأرواح، فإذا لم يتحدوا حتى يكونوا كشخص واحد، ويبذل كل واحد ما بيده لمصلحتهم العامة، لا تستقيم لهم حال ولا تقوم لهم قائمة[٧٣].

وهذه هي السنة العامة في كل دين عند ابتداء ظهوره وأول نشأته، ثم بعد أن تعتز الملة وتكثر الأمة، ويصير يكفي لحفظ مصلحتها ما يبذله كل ذي غنى من بعض ماله، ويفرغ الجمهور للأعمال الخاصة بحيث يتمكن ذو العمل أن يفيض من كسبه على أهله وولده، بعد أن كان مستغرقا في السعي لتعزيز دينه ووقايته من المحو والزوال، بعد هذا كله تختلف الحال فلا يسهل على كل واحد أن يؤثر كل محتاج على نفسه وأهله وولده؛ ولذلك توجهت النفوس بعد استقرار الإسلام إلى تقييد تلك الإطلاقات في الإنفاق، فسألوا ماذا ينفقون ؟ فأجيبوا بأن

---

[٧٢] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

[٧٣] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ص ٥٩٤ الجزء الرابع

ينفقوا العفو، وهو الفضل والزيادة عن الحاجة، وعليه الأكثر، وقال بعضهم : إن العفو نقيض الجهد؛ أي : ينفقون ما سهل عليهم وتيسر لهم مما يكون فاضلا عن حاجتهم وحاجة من يعولون.

فهل المراد حاجة اليوم أو الشهر أو السنة ؟ رجح بعضهم الأخير؛ لأن النبي صلى الله عليه ادخر لأهله قوت سنة، وقال الأستاذ الإمام : إن القرآن أطلق العفو ليقدره كل قوم في كل عصر بحسب ما يليق بحالهم؛ لأنه خطاب عام ليس خاصا بأهل جزيرة العرب، ولا بحال الناس في زمن البعثة.

والمراد بهذا الإنفاق ما وراء الزكاة المفروضة المحدودة كصدقة التطوع على الأفراد وعلى المصالح العامة، وإن كان لفظ العفو يصدق على الزكاة؛ لأنها لا تكون إلا من الزائد على الحاجة الذي لا جهد ولا مشقة فيه.

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة ما يؤيد هذا، فقد أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول"[٧٤].

وقد نوه الأستاذ الإمام في هذا المقام بالإنفاق في حفظ مصالح الأمة وأعمالها الخيرية، فقال ما مثاله : إن الأمة المؤلفة من مليون واحد إذا كانت تبذل من فضل مالها في مصالحها العامة، كإعداد القوة وتربية النابتة على ما يؤهلها لاستعمالها ويقرر الفضيلة في أنفسها تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مائة مليون لا يبذلون شيئا من فضول أموالهم في مثل ذلك؛ ذلك بأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأمة ;لأن أمته عون له، تعده جزءا

---

[٧٤] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده

منها ويعدها كلا له؛ والأمة الثانية كلها لا تعد بواحد؛ لأن كل جزء من أجزائها (أي أفرادها) يخذل الآخر ويرى أن حياته بموته فيكون كل واحد منها في حكم الميت.
وفي الحقيقة إن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة؛ لأن كل واحد من أفراده يعيش وحده وإن كان في جانبه أهل الأرض، فهو لا يتصل بمن معه ليمدهم ويستمد منهم، ويتعاون الجميع على حفظ الوحدة الجامعة لهم التي تحقق معنى الأمة فيهم. وإنه لم تنهض أمة ولا ملة إلا بمثل هذا التعاون، وهو مساعدة الغني للفقير، وإعانة القوي للضعيف، وبذل المال، والعناية في حفظ المصلحة العامة؛ بهذا ظهر القليل على الكثير وكانتلهم السيادة، وبترك هذا انحلت الأمم الكبيرة، وفقدت الملك والسعادة.
قال الأستاذ الإمام: إن النكتة في الجمع بين السؤال عن الخمر والميسر، والسؤال عن الإنفاق في آية واحدة هي المقارنة بين حال فريقين من الناس: فريق ينفق المال بغير حساب في سبيل الإثم، إما للتفاخر والتباهي فيما لا فخر فيه ولا شرف في الحقيقة، وإما لمجرد اللذة وإن ساءت عواقبها، وفريق ينفقه في سبيل الله يزيل به ضرورة إخوانه المساكين والضعفاء، ويرفع به من شأن أمته بما يجعله للمصالح العامة وأعمال الخير.
وقوله تعالى: "كذلك يبيّن الله لكم الآيات" معناه: مثل هذا النحو وعلى هذه الطريقة من البيان قد قضت حكمة الله بأن يبيّن لكم آياته في الأحكام المتعلقة بمصالحكم ومنافعكم، وذلك بأن يوجه عقولكم إلى ما في الأشياء من المضار
والمنافع "لعلكم تتفكرون" فيظهر لكم الضار منها أو الراجح ضررة، فتعلموا أنه جدير بالترك فتتركوه على بصيرة واقتناع بأنكم فعلتم ما فيه المصلحة.

كما يظهر لكم النافع فتطلبوه، فمن رحمته لم يرد أن يعنتكم ويكلفكم ما لا تعقلون له فائدة إرغاما لإرادتكم وعقلكم، بل أراد بكم اليسر فعلمكم حكم الأحكام وأسرارها، وهداكم إلى استعمالعقولكم فيها، لترتقوا بهدايته عقولا وأرواحا، لا لتنفعوه سبحانه أو تدفعوا عنه الضر؛ فإنه غني عنكم بنفسه، حميد بذاته، عزيز بقدرته.
ثم بيّن جل شأنه أن هذا البيان المعد للتفكر ليس خاصا بمصالح الدنيا وحدها، ولا بطلب الآخرة على انفرادها، وإنما هو متعلق بهما جميعا فقال:"في الدنيا والآخرة" أي تتفكرون في أمورهما معا، فتجتمع لكم مصالح الجسد والروح فتكونون أمة وسطا، وأناسي كاملين، لا كالذين حسبوا أن الآخرة لا تنال إلا بترك الدنيا وإهمال منافعها ومصالحها بالمرة، فخسروها وخسروا الآخرة معها؛ لأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا كالذين انصرفوا إلى اللذات الجسدية كالبهائم ففسدت أخلاقهم وأظلمت أرواحهم، وكانوا بلاء على الناس وعلى أنفسهم فخسروا الآخرة والدنيا معها[٧٥].

إنه السؤال نفسه من عمرو بن الجموح وكان الجواب عليه من قبل هو "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" (سورة البقرة – آية ٢١٥)، وهنا جواب بشكل وصورة أخرى "قل العفو" والعفو معناه الزيادة[٧٦].
وفي ذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :
"وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ حَتَّى

---

[٧٥] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده
[٧٦] تفسير الشعراوي

عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ"[٧٧].

إن الله سبحانه وتعالى يحذر وينذر لعل الناس تتذكر وتعتبر، إنه ـ سبحانه ـ لم يرسل نبيا إلى قوم فقابلوه بالتكذيب والنكران إلا أخذهم وابتلاهم بالفقر والبؤس والمرض والضر لعلهم يتوبون إلى ربهم ويتذللون له ـ سبحانه ـ ليرفع عنهم ما ابتلاهم به، ثم لما لم يرجعوا ويقلعوا عما هم فيه من الكفر والعناد اختبرهم وامتحنهم بالنعم؛ بالخصب والثراء والعافية والرخاء حتى كثروا وزادت أموالهم وخيراتهم، وقالوا ـ وهم في ظل تلك النعم ـ: إن ما يصيبنا من سراء وضراء وخير وشر إنما هو سنة الكون، وعادة الدهر، فأسلافنا وآباؤنا كان يعتريهم مثل ما يصيبنا، ولما أصروا على كفرهم باغتهم الله بالعذاب، وأنزل بهم العقاب المفاجئ. قلبهم الله بين الشدة والرخاء، وعالجهم بالضر واليسر، حتى لا تكون لهم حجة على الله، ولما ظهرت خسة طبعهم وأقاموا على باطلهم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر[٧٨].

ولنتأمل قوله تعالى في ذلك :

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ"[٧٩].

أي لم نعجل بعقابهم بل تركناهم فتمادوا في المعصية حتى إذا فرحوا بما أتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد، "أخذناهم بغتة

---

[٧٧] سورة الأعراف – آية ٩٤، ٩٥

[٧٨] تفسير الشعراوى

[٧٩] سورة الأنعام – ٤٢: ٤٤

فإذا هم ملبسون" أي يائسون من رحمة الله أو نادمون متحسرون، ولا ينفعهم الندم حينئذ. فقد فاتت الفرصة وضيعوها على أنفسهم. إن الحق ينزل هذا الأمر كعقاب وبه تكون النقلة صعبة، إنهم يتمادون فيعاقبهم الحق عقابا صاعقا، كالذي يرفع كائنا في الفضاء ثم يتركه ليهوى على الأرض، والعفو هنا يمكن أن يكون بمعنى أنهم ازدادوا في الطغيان[٨٠].

وهناك معنى آخر للعفو فقد يأتي بمعنى الترك :

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[٨١]، أي فمن ترك له أخوه شيئا فليأخذه.

إذن فالعفو تارة يكون بمعنى الزيادة، وتارة أخرى يكون بمعنى الترك، والحق هنا يقول: "ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو" أي أن الإنفاق إنما يكون من عن الحاجة، فيكون معنى العفو هنا هو الزائد أو المتروك، وهكذا نرى أن العفو واحد في كلا الأمرين، فلا تظن أن المعاني تتضارب؛ لأن بها يتحقق المعنى المقصود في النهاية، فالعفو هو الزيادة، والعفو أيضا يؤخذ بمعنى الصفح.

إن الإنفاق من الزائد عن الحاجة يحقق الصفح ويحقق الرفاهية في المجتمع. فالذي يزرع أرضا وينتج ما يكفيه هو وعياله ويزيد، فهل يترك ما يزيد عن حاجته ليفسد أم ينفق منه على قريبه أو جاره المحتاج؟ أيهما أقرب إلى العقل والمنطق؟ وكان

---

[٨٠] تفسير الشعراوى

[٨١] سورة البقرة – آية ١٧٨

ذلك قبل أن يشرع الحق الزكاة بنظامها المعروف. وما سر تبديلها من عفو إلى زكاة؟[٨٢].
لأن الحق أراد أن يقدر حركة المتحرك، فجعل حركته تخفف عنه ولا تثقل عليه. لأن حركة المتحرك تنفع المتحرك، أراد المتحرك أو لم يرد؛ ولذلك نجد "زكاة الركاز" وهي الزكاة المفروضة على ما يوجد في باطن الأرض من ثروات كالمعادن النفيسة والبترول وغيرها، لقد جعل الحق نصاب تلك الزكاة عشرين في المائة، أي الخمس بينما الذي يحرث الأرض ويبذر فيها الحب ويتركها حتى ينزل المطر فتنمو فنصاب الزكاة هو العشر على ما أنتجته زراعته.
وأما الذي يزرع على ماء الري فعليه نصف العشر، والذي يتاجر كل يوم ويتعب فيذهب للمنتج ويشتري منه، ثم يوفر السلعة على البائع فيشتريها، هذا نقول له: عليك اثنان ونصف في المائة (٢.٥٪) فقط.
إذن فالزكاة متناسبة مع الحركة والجهد، كأن الحق يحمي الحركة الإنسانية من حمق التقنين البشري، إن المتحرك القوي يدفعه الله ليزيد من حركته لينتفع المجتمع، وأوكل الله للحاكم الذي يتبع منهج الإسلام أن يأخذ من الأثرياء ما يقيم به كرامة الفقراء. إن بخل الأغنياء بفضل الله عليهم، ولم ينفقوا على الفقراء من رزق الله؛ فالمنهج الحق يحمي المال من فساد الطمع، ومن فساد الكسل، ويريد الحياة مستقيمة وآمنة للناس. فالذي ينفق من ماله على أهله يحيا وهو آمن، وكذلك من ينفق على أهله وتوابعه فتزداد دائرة الأمان، وهكذا لقد حمى الله بالزكاة طموح البشر من حمق التقنين من البشر، فالمقنن من البشر يأتي للمتحرك أكثر ويزيد عليه الأعباء، نقول له: إن هذا المتحرك إن لم يقصد أن ينفع المجتمع فالمجتمع سينتفع بجهده

---

[٨٢] المصدر السابق - تفسير الشعراوى

بالرغم عنه؛ فالإنسان الذي يملك مالا يلقي الله خاطرا في باله، فيقول: "ماذا لو بنيت عمارة من عشرة أدوار، وفي كل دور أربع شقق" ويحسب كم تعطيه تلك العمارة من عائد كل شهر. إن هذا الرجل لم يكن في باله إلا أن يربح، فنتركه يفكر في الربح، وعندما نراقب الفائدة التي ستعود على المجتمع منه فسنجد الفائدة تعود على المجتمع من هذا العمل[٨٣].

لقد سألوه صلى الله عليه وسلم مرة: ماذا ينفقون؟، فكان الجواب عن النوع والجهة، فأما هنا فجاء الجواب عن المقدار والدرجة، والعفو: الفضل والزيادة، فكل ما زاد على النفقة الشخصية في غير ترف ولا مخيلة فهو محل للإنفاق، والأقرب فالأقرب، ثم الآخرون، والزكاة وحدها لا تجزىء، فهذا النص لم تنسخه آية الزكاة ولم تخصصه فيما يراه سيد قطب ، فالزكاة لا تبرىء الذمة إلا بإسقاط الفريضة، ويبقى التوجيه إلى الإنفاق قائما[٨٤].
إن الزكاة حى حق بيت مال المسلمين تجبيها الحكومة التي تنفذ شريعة الله، وتنفقها في مصارفها المعلومة، ولكن يبقى بعد ذلك واجب المسلم لله ولعباد الله، والزكاة قد لا تستغرق الفضل كله، والفضل كله محل للإنفاق بهذا النص الواضح؛ ولقوله عليه الصلاة والسلام: "في المال حق سوى الزكاة" من رواية شريك عن أبي حمزة عن عامر عن فاطمة بنت قيس عن النبي صلى الله عليه وسلم، نقله الإمام الجصاص في كتابه "أحكام القرآن"، حق يؤديه صاحبه ابتغاء مرضاة الله وهذا هو الأكمل والأجمل، فإن لم يفعل واحتاجت إليه الدولة المسلمة التي تنفذ

---

[٨٣] تفسير الشعراوى
[٨٤] **"في ظلال القرآن" سيّد قطب ص ٢٢١**

شريعة الله، أخذته فأنفقته فيما يصلح الجماعة المسلمة، كي لا يضيع في الترف المفسد، أو يقبض عن التعامل ويخزن ويعطل. "كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة". فهذا البيان لاستجاشة التفكر والتدبر في أمر الدنيا والآخرة، فالتفكر في الدنيا وحدها لا يعطى العقل البشرى ولا القلب الإنساني صورة كاملة عن حقيقة الوجود الإنساني، وحقيقة الحياة وتكالفها وارتباطاتها، ولا ينشئ تصورا صحيحا للأوضاع والقيم والموازين، فالدنيا شطر الحياة الأدنى والأقصر، وبناء الشعور والسلوك على حساب الشطر القصير لا ينتهى أبدا إلى تصور صحيح ولا إلى سلوك صحيح، ومسألة الإنفاق بالذات في حاجة إلى حساب الدنيا والآخرة، فما ينقص من مال المرء بالإنفاق يرد عليها طهارة لقلبه، وزكاة لمشاعره، كما يرد عليه صلاحا للمجتمع الذي يعيش فيه ووئاما وسلاما، ولكن هذا كله قد لا يكون ملحوظا لكل فرد، وحينئذ يكون الشعور بالآخر وما فيها من جزاء، وما فيها من قيم وموازين، مرجحا لكفة الإنفاق، تطمئن إليه النفس، وتسكن له وتستريح، ويعتدل الميزان فيد يدها فلا يرجح بقيمة زائفة[٨٥].

أسباب نزول الآية

وتأتى مناسبة السؤال هنا لما قبله: لما نهى الله – جل شأنه – المؤمنين عن إنفاق أموالهم فى الوجوه المحرمة كتعاطى الخمور والميسر، سألوا عن وجوه الإنفاق الحلال، وعن مقدار ما ينفقون فأُجيبوا بما جاءت به الآية الكريمة.

---

[٨٥] "في ظلال القرآن" سيّد قطب

ويؤيد هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن نفرا من الصحابة رضى الله عنهم أمروا بالنفقة فى سبيل الله تعالى أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنّا لا ندرى ما هذه النفقة التى أمرنا بها فى أموالنا، وما الذى ننفقه منها، فنزلت هذه الآية، وكان الرجل قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق ولا ما يأكل.

المقصود بالعفو
تعددت وتنوعت الأقوال فى معنى العفو ومفهومه، فقيل "الزيادة"، وقيل ما سهل وتيسر مما يكون فاضلا عن الكفاية، وقيل: الفضيلة بين طرفى الإفراط والتفريط. والمختار: ما يفضل عن حاجة الإنسان الضرورية ويسهل بذله، ولا يتضرر فاعله بفعله ولا تركه.

السؤال السابع

اليتامي :-

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"

(سورة البقرة – آية ٢٢٠)

تعد كفالة اليتم من أحب الأعمال إلى الله تعالى، وكما أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن كافل اليتيم سيكون معه في الجنة، وأن هذا الثواب لم يذكر جزاء لكثير من الأعمال الصالحة، كما أن كفالة اليتامى نوع من أنواع التعاون على البر والتقوى الذي أمرنا الله تعالى به في كتابه، والإسلام أولى باليتيم أشد الاهتمام وعظم مكافأة الإحسان له، ويكفى اليتم فخرا أن خاتم الأنبياء والمرسلين ولد يتيما.

واليتيم هو كل من فقد أباه ودون سن البلوغ الشرعى من الذكور أو الإناث، يستدل بالآية الكريمة على جواز التصرف فى أموال اليتامى على وجه الإصلاح، وعلى أن للولى أن يخالط اليتيم بنفسه فى المصاهرة والمشاركة وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة.

ويستفتونك في مخالطة اليتامى والأكل من أموالهم، فأجبهم أن من خالطهم وأصلح وسدد وقارب ونصح لهم فهو أحسن من اجتنبهم، وإن جمعتم مالكم مع مالهم ليعظم الربح وتقلة وتقل الخسارة، وقامت بينكم شراكة للمنفعة فأنتم إخوان في الدّين، بعضكم ولي بعض، ينصح له ويحرص له ويحرص عليه[٨٦].
والله تبارك وتعالى يطلع على من أراد الفساد وسعى إليه ممن اجتهد في الخير واتقى ربه في حال الشراكة والخلطة مع اليتامى، ولو أراد الله أن يعسر عليكم لحرم عليكم مخالطة اليتامى، ولكنه سهّل عليكم ولم يكلفكم ما لا تطيقون؛ لأنه عزيز يحكم ما أراد بقوة ونفاذ، حكيم يقضي بما فيه حكمة ويقدر ما فيه رحمة٨٧.
ويسألونك يا محمد عن القيام بأمر اليتامي أو التصرف في أموالهم أو عن أموالهم وكيف يكونون معهم؟، فقل لهم: إن المطلوب هو إصلاحهم بالتهذيب والتربية الرشيدة، والمعاملة الحسنة، وإصلاح أموالهم بالمحافظة عليها وعدم إنفاقها إلا في الوجوه المشروعة٨٨.
فهذا الإصلاح المفيد لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم، وتركهم، ولذا قال تعالي بعد ذلك: "وإن تخالطوهم فإخوانكم" وإن تعاشروهم وتضموهم إليكم فاعتبروهم إخوانكم في العقيدة

---

[٨٦] **التفسير الميسر د. عائض القرني**

[٨٧] التفسير الميسر د. عائض القرني
[٨٨] **مقال للإمام الأكبر محمد سيّد طنطاوى في جريدة الأهرام بعنوان هذا هو الإسلام : حديث القرآن الكريم عن النبي صلى الله وعليه وسلم**

والإنسانية، وعاملوهم بمقتضي ما تفرضه الأخوة من تراحم وتعاطف ومساواة.
ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : "إن الله عزيز حكيم" أي: إن الله تعالي غالب علي أمره لا يعجزه أمر من الأمور التي من جملتها إعناتكم قادر علي أن يعز من أعز اليتامي ويذل من يذلهم، حكيم في كل تصرفاته وأفعاله، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها.
ونعرف أن اليتامى قد لا يدخلون في دائرة المحتاجين لكن الله ينبهنا إلى أن المسألة في اليتيم ليست مسألة احتياج إلى الاقتيات، ولكنه في حاجة إلى أن نعوضه بالتكافل الإيماني عما فقده من الأب، وذلك يمنع عنه الحقد على الأطفال الذين لم يمت آباؤهم.
وحين يجد اليتيم أن كل المؤمنين آباء له فيشعر بالتكافل الذي يعوضه حنان الأب ولا يعاني من نظرة الأسى التي ينظر بها إلى أقرانه المتميزين عليه بوجوده آبائهم، وبذلك تخلع منه الحقد[٨٩].
وكان المسلمون القدامى يخلطون أموالهم بأموال اليتامى ليسهلوا على أنفسهم، وعلى أمر حركة اليتيم مئونة العمل، فلو أن يتيما دخل تحت وصاية إنسان، وأراد هذا الإنسان أن يجعل لليتيم القاصر حياة مستقلة وإدارة مستقلة ومسلكاً مستقلاً في الحياة لشق ذلك على نفس الرجل، ولذلك أذن الله أن يخلط الوصي ماله بمال اليتيم، وأن يجعل حركة هذا المال من حركة ماله، بما لا يوجد عند الوصي مشقة.
وإياكم أن تفهموا أن الشكلية الاجتماعية تكفي الوصي في أن يكون مشرفاً على مال اليتيم دون حساب؛ لأن الله يعلم المفسد

---

[٨٩] تفسير الشعراوى ج١٢ ص٩٦٠- ٩٧٠

من المصلح، فلا يحاول أحد أن يقول أمام الناس: إنه قد فتح بيته لليتيم وإنه يرعى اليتيم بينما الأمر على غير ذلك؛ لأن الله يعلم المفسد من المصلح.

ويقول الحق: "ولو شاء الله لأعنتكم" والإعنات هو أن توقع غيرك وتدخله في أمر فيه مشقة، فلو لم يبح الله لكم مخالطتهم لأصابتكم مشقة فيسر الله للمؤمنين من الأوصياء أن يخالطوا اليتامى، ومعنى المخالطة: هو أن يوحد الوصي حركة اليتم مع حركته، وأن يوحد معاش اليتيم مع معاشه، بدلاً من أن يكون لليتيم على سبيل المثال أدوات طعام مستقلة، وقد كان هذا هو الحاصل.

وكان يفسد ما يتبقى من الطعام؛ فلم تكن هناك وسائل صيانة وحفظ الأطعمة مثل الثلاجات، وكان ذلك ضرراً باليتيم، وضرراً أيضا بمن يشرف عليه، لكن حين قال: "وإن تخالطوهم"، فكان ذلك توفيرا للمشقة على الأوصياء، فالمخالطة هي المعاشرة التي لا يتعثر فيها التمييز.

ويتابع الحق: "والله يعلم المفسد من المصلح" لأن الوصي قد يدعي أمام الناس أنه يرعى حق اليتيم، وأنه يقوم بمصالحه ويحترم ماله، لكن الأمر قد يختلف في النية وهو سبحانه لم يكل الأمر إلى ظواهر فهم المجتمع لسلوك الوصي مع اليتيم وعن المخالطة، بل نسب ذلك كله إلى رقابته سبحانه، وذلك حتى يحتاط الإنسان ويعرف أن رقابة الله فوق كل رقابة، ولو شاء الحق لأعنت الأوصياء وجعلهم يعملون لليتيم وحده، ويفصلون بين حياة اليتيم وحياتهم ومعاشهم، وفي ذلك مشقة شديدة على النفس[٩٠].

---

[٩٠] المصدر السابق ـ تفسير الشعراوى

قال الله تعالى لنبيّه: قل لهؤلاء السائلين عن القيام على اليتامى وكفالتهم، وعن المصلحة في عزلهم أو مخالطتهم "إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم"، يعني أي إصلاح لهم خير من عدمه.

فلا تتركوا شيئا مما تعلمون أن فيه صلاحا لهم في أموالهم وأحوالهم من تربية وتهذيب، هذا ما أفاده تنكير (إصلاح) وإن تخالطوهم لرؤيتكم الخير لهم في المخالطة في المعيشة فهم إخوانكم في الدين، وإنما شأن الإخوان المخالطة في المعاشرة. وقد أزالت الكلمة الأولى من هذا الجواب الوجيز شبهة المتأثمين من كفالتهم، وكشفت الكلمة الثانية شبهة القوام المتحرجين من مخالطتهم، ومن هذا الجواب عرفنا حقيقة السؤال، وهذا من ضروب الإيجاز التي لم تعرف إلا من القرآن[٩١].

أما معنى كون الإصلاح لهم خيرا فهو أن القيام عليهم لإصلاح نفوسهم بالتهذيب والتربية، وإصلاح أموالهم بالتثمير والتنمية، هو خير من إهمال شأنهم وتركهم لأنفسهم تفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم، خير لهم لما فيه من صلاحهم، وخير للقوام والكافلين لما فيه من درء مفسدة إهمالهم، ومن المصلحة العامة في صلاح حالهم، ولما في ذلك من حسن القدوة في الدنيا، وحسن المثوبة في الأخرى.

وأما قول: "وإن تخالطوهم فإخوانكم" فمعناه أنه لا وجه للتأثم من مخالطتهم في المأكل والمشرب والمكسب، فهم إخوانكم في الدين، ومن شأن الإخوة أن يكونوا خلطاء وشركاء في الملك والمعاش، ولا ضرر على أحد منهم في ذلك، بل هو نافع لهم؛ لأن كل واحد منهم يسعى في مصلحة الجميع، والمخالطة مبنية

---

[٩١] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ص٥٩٩ ج٤

بينهم على المسامحة لانتفاء مظنة الطمع وتحقق الإخلاص وحسن النية، كأنه يقول: وإن تخالطوهم فعليكم أن تعاملوهم معاملة الإخوة في ذلك، فيكون اليتيم في البيت كالأخ الصغير تراعى مصلحته بقدر الإمكان، ويتحرى أن يكون في كفته الرجحان، وقيل : إن المراد بالمخالطة المصاهرة، وأخوة الإسلام علة لحلها، وقد أطال أبو مسلم في ترجيح هذا الوجه[٩٢].

وهذا الذي هدانا إليه الكتاب العزيز في شأن اليتامى من معاملتهم كالإخوان مبني على ما أودع الفطرة السليمة من الحب والإخلاص للأقربين، وقد طرأ الفساد على هذه الرابطة النسبية في بلاد كثيرة بما أفسدت السياسة في الأمة، فصار الأخ يطمع في مال أخيه، ويحفر له من المهاوي ما لعله هو يقع فيه، وأمثال هؤلاء الذين فسدت طباعهم واعتلت خلائقهم لا يوكل إليهم الرجوع إلى الفطرة وتحكيمها في معاملة اليتامى كالإخوة؛ لذلك لم يكتف القرآن بذلك حتى وضع للضمير والوجدان قاعدة يرجع إليها في هذا الشأن، فقال: "والله يعلم المفسد من المصلح" أي إنه لم يكل أمر مخالطة اليتامى إلى حكم نزعة القرابة وعاطفة الأخوة من قلوبكم إلا وهو يعلم ما تضمر هذه القلوب من قصد الإصلاح لهم أو الإفساد.

فعليكم أن تراقبوه في أعمالكم ونياتكم، وتعلموا أن سيحاسبكم على مثقال الذرة مما تعملون لهم. والمصلح هو من يأتي بالإصلاح عملا، والمفسد هو من يأتي بالإفساد فعلاً، وحال كل منهما ظاهرة للعيان، وإنما أيقظ الله تعالى القلوب إلى ذكر علمه بذلك لتلاحظ إطلاعه على العمل، وتتذكر جزاءه عليه فتراقبه فيما خفي منه، لعلها تأمن من مزالق الشهوة، وتسلم من مزال

---

[٩٢] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده

الشبهة، فإن شهوة الطامع تولد لصاحبها شبهة أكل مال اليتيم، كما يأكل صاحبها مال أخيه الضعيف، ولا عاصم من ذلك إلا بمراقبة الله تعالى وتقواه.

وإلا فإننا نرى أكثر الأوصياء على الأيتام في هذا الزمان يظهرون للملأ إصلاح أحوالهم، وتثمير أموالهم، مع العفة والزهادة فيها، وهم في الباطن يأكلونها أكلا لما، حتى إن واحدهم يصبح غنيا بعد فقر ولا عمل له إلا القيام على اليتيم، والأجرة المفروضة له على الوصاية لا غناء فيها فيكون غنيا بها. وكل من يطلب أن يكون وصيا على يتيم ويسعى لذلك سعيه فهو موضع للظنة، وقلما يوجد فيهم من يرضى بما يفرض له على عمله.

ثم بين لنا سبحانه وتعالى منته علينا ورحمته بنا بما أذن لنا من مخالطة اليتامى فقال: "ولو شاء الله لأعنتكم" أي: أوقعكم في العنت، وهو المشقة وما يصعب احتماله، بأن يكلفكم القيام بشئون اليتامى وتربيتهم وحفظ أموالهم، ولا يأذن لكم بمخالطتهم ولا بأكل لقمة واحدة من طعامهم، ولكنه لسعة رحمته لا يكلف نفسا إلا وسعها، "وما جعل عليكم في الدين من حرج، ولذلك أباح لكم مخالطة اليتامى على أن تعاملوهم معاملة الإخوة، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم.

وقد عفا عما جرى العرف على التسامح فيه لعدم استغناء الخلطاء عنه، ووكل ذلك إلى ذمتكم وأمركم بمراقبته فيه، وهو الرقيب المهيمن الذي لا يخفى عليه شيء من عملكم ولا من قصدكم ونيتكم. "إن الله عزيز حكيم" فلو شاء إعناتكم لعز على غيره منعه من ذلك؛ إذ لا عزة تعلو عزته، ولكن مضت حكمته

بأن تكون شريعته جامعة لمصالح عباده، جارية على سنن الفطرة المعتدلة التي فطرهم عليها[٩٣].

أسباب نزول الآية

وقد كان السابقون الأولون من المؤمنين يحفظون حدود الله تعالى، ويأخذون القرآن بقوة؛ لأنهم لبلاغتهم يفهمون الوعيد في مثل هذه الآية "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً" [٩٤]، فتحدث لهم من الذكرى والعظة ما لا يجد مثله من لم يؤت بلاغتهم.

هذا الاتعاظ والاعتبار بوصايا الكتاب العزيز في اليتامى قد ملكت نفوس المؤمنين فتركتهم في حيرة وحرج من أمر القيام عليهم واستغلال أموالهم؛ خوفا أن ينالهم شيء من الظلم المذكور في آية سورة النساء؛ لأن الظلم يتناول كل ما نقص من الحق[٩٥].

فإذا اختلط اثنان في النفقة وأكل أحدهما مما اشترى بمالهما أكثر من الآخر تكون الزيادة من مال الآخر، فإن كان راشدا فرضاه ولو بالعرف أو القرينة إذن يبيح هذا التناول، وأما إذا كان الخليط يتيما فإن الزيادة تكون مظنة الظلم أو هي منه حتما؛ ولذلك تأثم الصحابة عليهم رضوان الله من مخالطة اليتامى بعد نزول آية النساء.

وإن كانت العادة جارية بتسامح الناس في مؤاكلة الخلطاء والشركاء من غير تدقيق، فكان بعضهم يأبى القيام على اليتيم، وبعضهم يعزل اليتيم عن عياله فلا يخالطونه في شيء حتى

---

[٩٣] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده

[٩٤] سورة النساء – آية ١٠

[٩٥] **المصدر نفسه**

إنهم كانوا يطبخون له وحده، ثم إنهم فطنوا إلى أن هذا - على ما فيه من الحرج عليهم - لا مصلحة فيه لليتيم بل هو مفسدة له في تربيته ومضيعة لماله.
ومن هنا جاءت الحيرة واحتيج إلى السؤال عن طريق الجمع بين الأمرين، والتوحيد بين المصلحتين، بأن يعيش اليتيم في بيت كافله عزيزا كريما كأحد عياله، ويسلم الكافل من أكل شيء من ماله بغير حق، وكان من فضل الله تعالى ورحمته أن أنزل الوحي في إزالة الحيرة وكشف الغمة[٩٦].

إن التكافل الاجتماعي هو قاعدة المجتمع الإسلامي، والجماعة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها، واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف أولى برعاية الجماعة وحمايتها، رعايتها لنفوسهم وحمايتها لأموالهم[٩٧].
ولقد كان بعض الأوصياء يخلطون طعام اليتامى بطعامهم، وأموالهم بأموالهم للتجارة فيها جميعا؛ وكان الغبن يقع أحيانا على اليتامى، فنزلت الآيات في التخويف من أكل أموال الأيتام، عندئذ تحرج الأتقياء حتى عزلوا طعام اليتامى من طعامهم، فكان الرجل يكون في حجره اليتيم، يقدم له الطعام من ماله، فإذا فضل منه شيء بقي له حتى يعاود أكله أو يفسد فيطرح! وهذا تشدد ليس من طبيعة الإسلام، فوق ما فيه من الغرم أحيانا على اليتيم.
فعاد القرآن يرد المسلمين إلى الاعتدال واليسر في تناول الأمور؛ وإلى تحري خير اليتيم والتصرف في حدود مصلحته،

---

[٩٦] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ص٥٩٩ ج٤
[٩٧] "في ظلال القرآن" سيّد قطب

فالإصلاح لليتامى خير من اعتزالهم، والمخالطة لا حرج فيها إذا حققت الخير لليتيم، فاليتامى إخوان للأوصياء، كلهم إخوة في الإسلام، أعضاء في الأسرة المسلمة الكبيرة، والله يعلم المفسد من المصلح، فليس المعول عليه هو ظاهر العمل وشكله، ولكن نيته وثمرته، والله لا يريد إحراج المسلمين وإعناتهم والمشقة عليهم فيما يكلفهم، ولو شاء الله لكلفهم هذا العنت، ولكنه لا يريد، "وهو العزيز الحكيم"، فهو قادر على ما يريد، ولكنه حكيم لا يريد إلا الخير واليسر والصلاح.
وهكذا يربط الأمر كله بالله؛ ويشده إلى المحور الأصيل التي تدور عليه العقيدة، وتدور عليه الحياة، وهذه هي ميزة التشريع الذي يقوم على العقيدة. فضمانة التنفيذ للتشريع لا تجيء أبدا من الخارج، إن لم تنبثق وتتعمق في أغوار الضمير[٩٨].

[٩٨] "في ظلال القرآن" سيّد قطب

السؤال الثامن

- المحيض -

-

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"

(سورة البقرة – آية ٢٢٢).

جاء حكم القرآن بالحذر والمنع للزوج من مباشرة زوجته الحائض، لما يلم بها من أذى فى قوتها وجسدها خلال هذه الفترة، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بالمرأة الحائض أن رخص لها ألا تصوم وألا تصلى فى فترة الحيض.
وبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الزوج المسلم يظل مع زوجته الحائض فى البيت لا يتركها كما يفعل اليهود لأن الحيض عادة تعترى النساء وأن هذا أمر كتبه الله على بنات حواء، وعلى الزوج أن يدرك هذا جيدا فلا يتصرف تصرف اليهود وإنما يظل يتعامل مع زوجته بأريحية شديدة دون تعنت أو إرهاق، والمحرم عليه فقط فى هذا التوقيت هو "الجماع".

ويستفتونك عن جماع الحائض، أحلال هو أم حرام؟ فقل لهم: هو حرام؛ لأن دم الحيض مستقذر مؤذ، فابتعدوا عن جماع الحائض حتى تطهر، فإذا طهرت من الحيض بالماء فجامعوها في الفرج؛ لأنه المأذون فيه شرعا، فهو سبحانه يحب التائب من الأوزار، والمتطهر من الأقذار: لأن الذنب دنس على النفس، والقذر وجس على الجسم ونجس، فطهارة الأرواح والأجسام بترك الأقذار والآثام[٩٩].

ويعالج الحق تبارك وتعالى هنا قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض فيأتي التشريع ليقنن هذه المسألة لأن الإسلام جاء وفي الجو الاجتماعي تياران: تيار يرى أن الحائض هي امرأة تعاني من قذارة؛ لذلك لا يمكن للزوج أن يأكل معها أو يسكن معها أو يعاشرها أو يعيش معها في بيت واحد وكذلك أبناؤه، وتيار آخر يرى المرأة في فترة الحيض امرأة عادية لا فرق بينها وبين كونها غير حائض أي تباشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوط أو تحفظ، كان الحال إذن متأرجحا بين الإفراط والتفريط، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه المسألة[١٠٠].

وحين تقرأ "هو أذى" فقد أخذت الحكم ممن يؤمن على الأحكام، ولا تناقش المسألة، مهما قال الطب من تفسيرات وتعليلات وأسباب نقل له: لا، الذي خلق قال: "هو أذى"، والمحيض يطلق على الدم، ويراد به ـ أيضاً ـ مكان الحيض، ويراد به زمان الحيض.

---

[٩٩] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

[١٠٠] تفسير الشعراوى ص٩٧٩ ــ ص٩٨٢

وقوله تعالى عن المحيض إنه أذى يهيئ الذهن لأن يتلقى حكما في هذا الأذى، وبذلك يستعد الذهن للخطر الذي سيأتي به الحكم، وقد جاء الحكم بالحظر والمنع بعد أن سبقت حيثيته.
إن الخالق عز وجل أراد أن تكون عملية الحيض في المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب، وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض؛ لأن المحيض أذى لهم، لكن هل دم الحيض أذى للرجال أو للنساء؟، إنه أذى للرجال والنساء معا؛ لأن الآية أطلقت الأذى، ولم تحدد من المقصود به، والذي يدل على ذلك أن الحيض يعطي قذارة للرجل في مكان حساس هو موضوع الإنزال عنده، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة.
والذي يحدث أن الحق قد خلق رحم المرأة وفي مبيضيها عدد محدد من البويضات يعلمه الخالق، وعندما يفرز أحد المبيضين البويضة فقد لا يتم تلقيح البويضة، فإن بطانة الرحم المكون من أنسجة دموية تقل فيها نسبة الهرمونات التي كانت تثبت بطانة الرحم، وعندما تقل نسبة الهرمونات يحدث الحيض.
المقصود بالحيض
والحيض هو دم يحتوي على أنسجة غير حية، وتصبح منطقة المهبل والرحم في حالة تهيج، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جدا لنمو الميكروبات المسببة للالتهابات سواء للمرأة، أو للرجل إن جامع زوجته في فترة الحيض، والحيض يصيب المرأة بأذى في قوتها وجسدها؛ بدليل أن الله رخص لها ألا تصوم وألا تصلي إذن فالمسألة منهكة ومتعبة لها، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هي عليه.
إذن فقوله تعالى: "هو أذى" تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة. وبعد ذلك بين الحق أن كلمة "أذى" حيثية تتطلب حكما يرد، إما بالإباحة وإما بالحظر، ومادام هو أذى فلابد أن

يكون حظراً، يقول عز وجل: "فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن" والذي يقول: إن المحيض هو مكان الحيض يبني قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية، لكن ما فوق السرة وما فوق الملابس فهو مباح، فقوله الحق: "ولا تقربوهن" أي لا تأتوهن في المكان الذي يأتي منه الأذى وهو دم الحيض.

"حتى يطهرن" و"يطهرن" من الطهور مصدر طهر يطهر، وعندما نتأمل قوله: "فإذا تطهرن" نجد أنه لم يقل: "فإذا طهرن"، فما الفرق بين "طهر" و"تطهر"؟، إن "يطهرن" معناها امتنع عنهن الحيض، و"تطهرن" يعني اغتسلن من الحيض[١٠١].

ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر في استنباط الحكم، ومثال ذلك قوله تعالى: " إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ* لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ المُطَهَّرُونَ"[١٠٢].

ما المقصود إذن؟ هل المقصود أن القرآن لا يمسكه إلا الملائكة الذين طهرهم الله من الخبث، أو أن للبشر أيضا حق الإمساك بالمصحف لأنهم يتطهرون؟ بعض العلماء قال: إن المسألة لابد أن ندخلها في عموم الطهارة، فيكون معنى "إلا المطهرون" أي الذين طهرهم من شرع لهم التطهر؛ ولذلك فالمسلم حين يغتسل أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران: التطهر والطهر. فالتطهر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال، والطهر بتشريع الله، فكما أن الله طهر الملائكة أصلا فقد طهرنا معشر الإنس تشريعا، وبذلك نفهم الآية على إطلاقها ونرفع الخلاف، وقوله تعالى: "حتى يطهرن" أي حتى يأذن الله لهن بالطهر، ثم يغتسلن استجابة لتشريع الله لهن بالتطهر.

---

[١٠١] تفسير الشعراوى

[١٠٢] سورة الواقعة آية ٧٧- ٧٩

"فأتوهن من حيث أمركم الله" يعني في الأماكن الحلال، "إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين"، وأراد الحق تبارك وتعالى أن يدخل عليك أنسا، فكما أنه طلب منك أن تتطهر ماديا، فهو سبحانه قبل أيضا منك أن تتطهر معنويا بالتوبة، لذلك جاء بالأمر حسيا ومعنويا، وبعد ذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بحكم جديد، هذا الحكم ينهي إشكالا أثاره اليهود.

وهذا هو السؤال الثالث من الأسئلة التي وردت معطوفة بالواو، وهو يتصل بما قبله وما بعده في أن ذلك من الأحكام المتعلقة بالنساء، وأما الأسئلة التي وردت قبلها مفصولة فلم تكن في موضوع واحد، فيعطف بعضها على بعض فجاءت على الأصل في سرد التعدد[١٠٣].

وقد كانت هذه الأسئلة في المدينة حيث الاختلاط بين العرب واليهود، وهؤلاء يشددون في مسائل الحيض والدم، كما هو مذكور في الفصل الخامس عشر من سفر اللاويين من الأسفار التي يسمون جملتها التوراة، ومنها أن كل من مس الحائض في أيام طمثها يكون نجسا، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء، وكل من مس متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء، وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة أيام، وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا إلخ. وللرجل الذي يسيل منه دم نحو هذه الأحكام عندهم.

وأما النصارى فقد نقل عنهم أنهم كانوا يتساهلون في أمر المحيض وكانوا مخالطين للعرب في مواطن كثيرة، وروي أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحيض ولا يؤاكلونهن

---

[١٠٣] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ص ٦١٥ الجزء ٤

كفعل اليهود والمجوس، ومن شأن الناس التساهل في أمور الدين التي تتعلق بالحظوظ والشهوات فلا يقفون عند الحدود المشروعة فيها لمنفعتهم ومصلحتهم، فكان اختلاف ما عرف المسلمون عن أهل الكتاب مما يحرك النفس للسؤال عن حكم المحيض في هذه الشريعة المصلحة.

فسألوا كما في حديث أنس بن مالك "أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله عز وجل هذه الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اصنعوا كل شيء إلا الجماع" رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن[١٠٤].

وقد فسّر(الجلالين) الأذى: بالقذر تبعا لغيره، على أن أخذه على ظاهره وهو الضرر مقرر في الطب فلا حاجة إلى العدول عنه، وقد جاء هذا الحكم وسطا بين إفراط الغلاة الذين يعدون المرأة الحائض وكل من يمسها أو يمس ثيابها أو فراشها من النجاسات، وتفريط المتساهلين الذين يستحلون ملابستها في الحيض على ما فيه من الأذى والدنس.

وقد أفادت عبارة الآية الكريمة تأكيد الحكم، إذ أمرت باعتزال النساء في زمن المحيض، وهو كناية عن ترك غشيانهن فيه، ثم بيّنت مدة هذا الاعتزال بصيغة النهي، والحكمة في التأكيد هي مقاومة الرغبة الطبيعية في ملابسة النساء وإيقافها دون حد الإيذاء.

وكان يظن بعض الناس أن الاعتزال وترك القرب حقيقة لا كناية، وأنه يجب الابتعاد عن النساء في المحيض وعدم القرب منهن بالمرة، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن لهم أن المحرم إنما هو الوقاع.

---

[١٠٤] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده

والظاهر أن المراد بلفظ الأمر في قوله: "فأتوهن من حيث أمركم الله" الأمر التكويني؛ أي : فأتوهن من المأتى الذي برأ الله تعالى الفطرة على الميل إليه ومضت سنته بحفظ النوع به وهو موضع النسل، ويحتمل أن يكون المراد بالأمر ما قضت به شريعة الله تعالى من طلب التزوج وتحريم الرهبانية، فليس للمسلم أن يترك الزواج على نية العبادة والتقرب إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه قد امتن علينا بأن خلق لنا من أنفسنا أزواجا لنسكن إليها وأرشدنا إلى أن ندعوه بقوله: "ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين".

ولا يتقرب إليه تعالى بترك ما شرعه وامتن به على عباده وجعله من نعمه عليهم، فإتيان النساء بالزواج الشرعي من الجهة التي يبتغى بها النسل من أعظم العبادات، وتركه مع القدرة عليه وعدم المانع مخالفة لسنة الله تعالى في خليقته، وسنته في شريعته.

ولما قال صلى الله عليه وسلم: "وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟"، وكأن السائلين كانوا توهموا أن الإسلام يكون كالأديان الأخرى يجعل العبادة في تعذيب النفس ومخالفة الفطرة؛ كلا، إنه دين الفطرة يحمل الناس على إقامتها مع القصد وعدم البغي فيها.

"إن الله يحب التوابين"، الذين إذا خالفوا سنة الفطرة بغلبة سلطان الشهوة فأتوا نساءهم في زمن المحيض أو في غير المأتى الذي أمر الله به، يرجعون إليه تائبين ولا يصرون على فعلهم السيئ، "ويحب المتطهرين"، من الأحداث والأقذار، ومن إتيان المنكر، بل هؤلاء أحب إليه من الذين يقعون في الدنس ثم يتوبون منه.

ثم قال تعالى في الآية التي تلتها: "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم"، بيّن في الآية السابقة حكم المحيض، وأحل غشيان النساء بعده، وبيّن في هذه الآية حكمة هذا الغشيان التي شرع الزواج لأجلها، وكان من مقتضى الفطرة وهي الاستنتاج والاستيلاد؛ لأن الحرث هو الأرض التي تستنبت، والاستيلاد كالاستنبات[١٠٥].

والأمر التشريعي بما جعل الزواج من أمر وأسباب المثوبة والقربة إلا لأجل حفظ النوع البشري بالاستيلاد، كما يحفظ النبات بالحرث والزرع، فلا تجعلوا استلذاذ المباشرة مقصودا لذاته فتأتوا النساء في المحيض حيث لا استعداد لقبول زراعة الولد وعلى ما في ذلك من الأذى، وهذا يتضمن النهي عن إتيانهن في غير المأتي الذي يتحقق به معنى الحرث، فكأنه يقول: لا حرج عليكم في إتيان النساء بأي كيفية شئتم ما دمتم تقصدون بها الحرث في موضعه الطبيعي؛ لأن الشارع لا يقصد إلى إعناتكم ومنعكم من لذاتكم، ولكن يريد ليوقفكم عند حدود المصلحة والمنفعة؛ كيلا تضعوا الأشياء في غير مواضعها فتفوت المنفعة وتحل محلها المفسدة.

وبحسب التفسير المختار، فإن قوله تعالى: "وقدموا لأنفسكم واتقوا الله"، أن هذه أوامر تدل على أن هنا شيئا يرغب فيه، وشيئا يرغب عنه ويحذر منه، أما ما يرغب فيه فهو ما يقدم للنفس وهو ما ينفعها في المستقبل، ولا أنفع للإنسان في مستقبله من الولد الصالح، فهو ينفعه في دنياه، وفي دينه من حيث إن الوالد سبب وجوده وصلاحه.

---

[١٠٥] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده

وقد ورد في الحديث إن الولد الصالح من عمل المرء الذي ينفعه دعاؤه بعد موته، ولا يكون الولد صالحا إلا إذا أحسن والداه تربيته، فالأمر بالتقديم للنفس يتضمن الأمر باختيار المرأة الودود الولود التي تعين الرجل على تربية ولده بحسن خلقها وعملها، كما يختار الزراعة في الأرض الصالحة التي يرجى نماء النبات فيها وإيتاؤه الغلة الجيدة، ويتضمن الأمر بحسن تربية الولد وتهذيبه.

وأما ما يحذر منه ويتقى الله فيه فهو إخراج النساء عن كونهن حرثا بإضاعة مادة النسل في المحيض أو بوضعها في غير موضع الحرث، وكذلك اختيار المرأة الفاسدة التربية، وإهمال تربية الولد؛ فإن الأمر بالتقوى ورد بعد النهي عن إتيان النساء في المحيض والأمر بإتيانهن من حيث أمر الله تعالى وهو موضع الحرث والأمر بالتقديم لأنفسنا، فوجب تفسير التقوى بتجنب مخالفة هذا الهدي الإلهي.

وقوله تعالى:-

"واعلموا أنكم ملاقوه"، إنذار للذين يخالفون عن أمره بأنهم يلاقون جزاء مخالفتهم في الآخرة كما يلاقونها في الدنيا بفقد منافع الطاعة والامتثال، وتجرع مرارة عاقبة المخالفة والعصيان، ثم قرن إنذار العاصين بتبشير المطيعين فقال:

"وبشر المؤمنين"، الذين يقفون عند الحدود ويتبعون هدى الله تعالى في أمر النساء والأولاد.

وقد حذف ما به البشارة؛ ليفيد أنه عام يشمل منافع الدنيا ونعيم الآخرة، ولا يعزب عن فكر العاقل أن من يختار لنفسه المرأة الصالحة ولا يخرج في شأن الزوجية عن سنة الفطرة والشريعة في ابتغاء الولد، ثم إنه يحسن تربية ما يرزقه الله من

ولد فإنه يكون في الدنيا قرير العين بحسن حاله وحال أهله وسعادة بيته.
وأما الذين تطغى بهم شهواتهم فتخرجهم عن الحدود والسنن فإنهم لا يسلمون من المنغصات والشقاء في حياتهم الدنيا، وهم في الآخرة أشقى وأضل سبيلا، وإنما سعادة الدارين في تكميل النفس بالاعتقاد الصحيح، والأخلاق المعتدلة، وتلك هي الفطرة السليمة، والتعبير بالمؤمنين يشعر بأن العمل والامتثال والإذعان مما يتحقق به إيمان المؤمن وأن فائدة الإيمان بثمراته هذه، وإن شئت قلت بتمام أركانه وهي الاعتقاد والقول والفعل، كما ورد في الأحاديث الصحيحة المبينة للآيات الكريمة الدامغة للذين يفصلون بين الاعتقاد والأعمال اللازمة له[١٠٦].

أسباب نزول الآية
أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه: "أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يمكثوا معها فى البيت فسأل الصحابة النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اصنعوا كل شئ إلا النكاح"، فهذه الرواية تبين أن سبب النزول هو سؤال الصحابة رسول الله عن المحيض لاسيما أنهم وجدوا من اليهود الذين يسكنون المدينة هذا التصرف فسألوا الرسول عن ذلك لمعرفة الحقيقة فأنزل الله هذه الآية التى تبين أن "المحيض" وهو مصدر يمكن أن يطلق على اسم الزمان أو اسم المكان أى "زمان الحيض" أو "مكان الحيض" فبين الله تعالى أن المحيض أذى وأن على الأزواج أن يعتزلوا زوجاتهم أثناء فترة

---

[١٠٦] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده

حيضهن والاعتزال هنا يكون بالنسبة للجماع لأن المحيض أذى وإذا جامع الزوج زوجته أثناء المحيض أصيب بأذى ظاهر وبأمراض خطيرة كشف عنها الطب الحديث، ولهذا فهذه الآية تعد من الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم.

السؤال التاسع

النساء

-

"وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً"

(سورة النساء – آية ١٢٧)

إن الدين الحنيف كان حريصا كل الحرص على إعطاء الأطفال اليتامى والمرأة حقوقهم بصفتهم الإنسانية، ولم يكن ليجير على حقوق أحد، أو أن يأمر باضطهاد فئة من البشر، أو أن يحض الرجال على بغض النساء، أو الطمع في ميراث الزوجات، وعندما استفتى الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر النساء، أفتاهم الخالق عز وجل بهذا النص القرآنى، الذي يقص عليهم حقوق اليتيمات، وحقوق الولدان الضعاف.

تلا ذلك آيات في أحكام النساء واليتامى ، والمستضعفين من الولدان ، ونشوز النساء والعدل بينهن والإصلاح بين الأزواج وتفرقهم ، دعمت بآيات في الوصية بالتقوى والتذكير بالله - تعالى - ووعده ووعيده ، والأمر بالمبالغة في القيام بالقسط والشهادة بالحق ، ولو على الأقربين والأغنياء والفقراء من غير محاباة ولا شفقة ، وذلك في نحو من عشر آيات .

يسألونك يا محمد في شأن النساء، قل: الله سوف يخبركم بالأحكام الشرعية الخاصة بهنّ في كتابه، وما أوحاه إلي من السنة، وسوف يخبركم بما أنزل في كتابه العظيم في شأن النساء الضعيفات اليتيمات اللوات تتزوجونهن ثم لا تدفعون لهن مهرا، فإن الله يأمركم بالعدل والإنصاف، وأن تتقوا الله سبحانه وتعالى في المرأة سواء أكانت يتيمة أم غير يتيمة في إعطائها حقها وإيصال المهر إليها كاملا مكملا[١٠٧].

وكذلك يخبركم سبحانه وتعالى في شأن الأطفال من اليتامى وغيرهم أن تتقوا الله فيهم وتحفظوا حقوقهم، من الميراث وغيره، وأن تعدلوا بين اليتامى، فلا تجوروا في قسمة مواريثهم، ولا في الوصية لهم، وخافوا الله بألا تأكلوا أموالهم بالباطل، واعلموا أن ما تقدمونه للمستضعفين واليتامى والفقراء والمساكين ونحوهم فالله سبحانه وتعالى عالم به، سوف يجازيكم عليه الجزاء الأحسن، وسوف يتقبله منكم إذا صدقتم وأخلصتم.

وإذا خشيت المرأة من زوجها أن يعرض عنها أو يفارقها وهى تريد البقاء معه فلا بأس أن تصطلح على إسقاط بعض الحقوق، وجبر الأمور والاتفاق على الأمر معا، فتتنازل عن بعض حقوقها في البيتوتة ونحو ذلك من الاستمتاع، ليبقى شيء من الوفاق، فإن ما لا يُدرك كله لا يترك جُلّه، ثم أمر الله سبحانه وتعالى بالصلح بين الزوجين؛ لأن الصلح فيه خير عظيم، فالموافقة والتنازل عن بعض الحقوق واستمرار العشرة أحسن من طلب الحق كله، ثم يعقب ذلك فراق وطلاق وبينونة، فالصلح خير؛ لأنه يدوم به الوفاق ويحصل به القرب ويزيل ما في النفوس، والنفوس مجبولة على البخل وعلى الشدة، وعلى

---

[١٠٧] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

الحرص الشديد على حقوقها، وعدم التنازل بشيء من ذلك، وعدم إعطاء الآخرين من الخير.
فالرجل حريص على متعته أو مفارقة زوجته إذا لم تعجبه، والمرأة حريصة على حقها كاملا من زوجها ولو شقّ عليه، فالواجب التنازل من الطرفين ليجتمع الشمل، ولكن من أحسن في عشرة زوجته، ولو كرهها وصبر على أذاها لتستمر الحياة معها، وأحسنت هى في التنازل عن بعض الحقوق والصبر عن الجفاء الذي يحصل منه أو التقصير لتستمر الحياة الزوجية، فإن هذا خير عند الله عز وجل، والله تعالى يعلم هذا الإحسان من فعل الخير ومن التقوى ومن ترك المعصية بينهم، وسوف يثيب الله عز وجل من أحسن من الزوجين بالثواب العظيم عنده.
ولن تقدروا أيها الرجال على العدل كل العدل بين زوجاتكم مهما حاولتم، ومهما حرصتم؛ لأن العدل أمر دقيق ومكلف، فلا يستطيع أحد أن يعدل في الحب والمعاشرة واللطف والقرب بين الزوجات؛ لأن هذا فوق طاقته وهو مكاف له، فإذا كان لا يستطيع فعليه أن يسدد ويقارب، فلا يجوز على إحدى الزوجات بحيث يحرمها ولو بعض الحق ويميل إلى إحداهن كل الميل، فيترك الأخرى لا هى مطلقة ولا هى متزوجة؛ كالشيء المعلق ليس مستقرا على الأرض، وليس واصلا إلى السماء[١٠٨].
فعلى العبد أن يصلح وسدد ما استطاع، ويقارب بين الأمور ويجتهد جهده ويتقى مولاه، ويخاف ربه في هذه المرأة ألا يظلمها، ثم بيّن الله سبحانه وتعالى عند حالة التقصير التي تحصل عند الأزواج والتي لابد منها – أنه غفور رحيم – وهو يتجاوز عن الأخطاء، ويسامح من قصّر إذا اجتهد، ويغفر لمن استغفر، ويتغمد برحمته من بدرت منه بوادر، وهو واسع

---

[١٠٨] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

الفضل والإحسان في تشريعه وفي أمره وفي نهيه وفي قبوله لاستغفار من استغفر، وتوبة من تاب.
لكن إذا لم يحصل اتفاق، ولم يقع الوفاق، وقد صمم على الفراق وعلى الطلاق، فالله سبحانه وتعالى سوف سوف يغني الجميع من فضله، فسوف يغنى الرجل بامرأة أخرى هى خير له من الأولى، وسوف يغنى المرأة برجل آخر خير من الأول، فإن الله تبارك وتعالى واسع الفضل والإحسان، عظيم الامتنان، بيده الخير كله، وهو يسهل سبحانه وتعالى النصيب الأحسن، واختياره أجمل، ومن فوض إليه الأمر كفاه وأعطاه وواساه[١٠٩].

وجاءت هذه الآية الكريمة تكملة لما بدأت به (سورة النساء) من علاج رواسب المجتمع الجاهلي، فيما يختص بالمرأة والأسرة؛ وفيما يختص بمعاملة الضعاف في المجتمع كاليتامى والأطفال، وتنقية المجتمع المسلم من هذه الرواسب؛ وإقامة البيت فيه على أساس من كرامة شطري النفس الواحدة؛ ورعاية مصالحهما معا، وتقوية روابط الأسرة وإصلاح ما يشجر في جوها من خلاف، قبل أن يستفحل، فيؤدي إلى تقطيع هذه الروابط، وتحطيم البيوت على من فيها، وبخاصة على الذرية الضعيفة الناشئة في المحاضن، وإقامة المجتمع كذلك على أساس من رعاية الضعاف فيه؛ كي لا يكون الأمر للأغلب؛ وتكون شريعة الغاب هي التي تتحكم!، وحتى يشعر المخاطب بهذه الآيات أن أمر النساء والبيوت والأسرة والضعاف في المجتمع هو أمر خطير كبير[١١٠].

---

[١٠٩] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني
[١١٠] **في ظلال القرآن – سيّد قطب**

لقد أثارت الآيات التي نزلت في أوائل (سورة النساء) أسئلة واستفتاءات في بعض شأنهن، وظاهرة سؤال المسلمين واستفتائهم في بعض الأحكام، ظاهرة لها دلالتها في المجتمع المسلم الناشئ؛ وفي رغبة المسلمين في معرفة أحكام دينهم في شؤون حياتهم.

فقد كانت الهزة التي أحدثتها النقلة من الجاهلية إلى الإسلام في نفوسهم هزة عميقة، بحيث أصبحوا يشكون ويشفقون من كل أمر كانوا يأتونه في الجاهلية، مخافة أن يكون الإسلام قد نسخه، أو عدله، ويتطلبون أن يعرفوا حكم الإسلام في كل ما يعرض لهم في حياتهم اليومية من الشؤون، وهذه اليقظة وهذه الرغبة في مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام، هي العنصر البارز في هذه الفترة، والاستفسار عن بعض الأحكام بهذه الروح.

لقد كانت بالقوم حاجة إلى معرفة أحكام دينهم، لأنها هي التي تكون نظام حياتهم الجديدة، وكانت بهم حرارة لهذه المعرفة، لأن الغرض منها هو إيجاد التطابق بين واقع حياتهم وأحكام دينهم، وكان بهم انخلاع من الجاهلية، وإشفاق من كل ما كان فيها من تقاليد وعادات وأوضاع وأحكام، مع شدة إحساسهم بقيمة هذا التغيير الكامل الذي أنشأه الإسلام في حياتهم، أو بتعبير أدق بقيمة هذا الميلاد الجديد الذي ولدوه على يدي الإسلام[١١١].

فهم كانوا يستفتون الرسول صلى الله عليه وسلم، والله سبحانه يتفضل فيقول للنبيه الكريم قل: إن الله يفتيكم فيهن وفي بقية الشؤون التي جاء ذكرها في الآية، وهي لفتة لها قيمتها التي لا تقدر، في عطف الله سبحانه، وتكريمه للجماعة المسلمة؛ وهو

---

[١١١] في ظلال القرآن – سيّد قطب

يخاطبها بذاته؛ ويرعاها بعينه؛ ويفتيها فيما تستفتي، وفيما تحتاج إليه حياتها الجديدة.
وقد تناولت الفتوى هنا تصوير الواقع المترسب في المجتمع المسلم من التقاليد الجاهلية التي التقطه المنهج الرباني منها، كما تناولت التوجيه المطلوب، لرفع حياة المجتمع المسلم وتطهيرها من الرواسب.
وهذه التقاليد الشائهة البدائية، هي التي أخذ الإسلام يبدلها، وينشئ مكانها تقاليد إنسانية راقية، تكون في حقيقتها نشأة أخرى، وميلاد جديد، لهذه الأمة غير حقيقتها الجاهلية.
ومهما يكن هناك من صراع قد وقع بين الملامح الجديدة والملامح القديمة، ومهما يكن هناك من آلام للمخاض وتضحيات، فقد تم هذا كله، لأن هناك رسالة علوية؛ وتصورا اعتقاديا؛ هو الذي كان له الأثر الأول والأثر الأخير في هذا الميلاد الجديد، الذي لم تقتصر موجته على المجتمع الإسلامي؛ ولكن تعدته كذلك إلى المجتمع الإنساني كله.
ومن ثم ينتهي هذا النص القرآني الذي يفتي فيه الله المؤمنين، فيما يستفتون فيه الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر النساء، ويقص عليهم حقوق اليتيمات، وحقوق الولدان الضعاف، ينتهي بربط هذه الحقوق وهذه التوجيهات كلها، بالمصدر الذي جاء من عنده هذا المنهج[١١٢].
وما تفعلوا من فهو غير مجهول، وهو غير ضائع، وهو مسجل عند الله، ولن يضيع خير سجل عند الله، وهذا هو المرجع الأخير الذي يعود إليه المؤمن بعمله، والجهة الوحيدة التي يتعامل معها في نيته وجهده، وقوة هذا المرجع، وسلطانه، هي

---

[١١٢] في ظلال القرآن – سيّد قطب

التي تجعل لهذه التوجيهات ولهذا المنهج قوته وسلطانه في النفوس، وفي الأوضاع وفي الحياة.
ثم نمضي خطوة أخرى مع التنظيم الاجتماعي في محيط الأسرة في هذا المجتمع الذي كان الإسلام ينشئه، بمنهج الله المتنزل من الملأ الأعلى، لا بعوامل التغير الأرضية في عالم المادة أو دنيا الإنتاج.
وقد نظم المنهج حالة النشوز من ناحية الزوجة؛ والإجراءات التي تتخذ للمحافظة على كيان الأسرة في آيات سابقة، أما في هذه الآية فهو ينظم حالة النشوز والإعراض حين يخشى وقوعها من ناحية الزوج، فتهدد أمن المرأة وكرامتها، وأمن الأسرة كلها كذلك.
إن القلوب تتقلب، وإن المشاعر تتغير، والإسلام منهج حياة يعالج كل جزئية فيها، ويتعرض لكل ما يعرض لها؛ في نطاق مبادئه واتجاهاته؛ وتصميم المجتمع الذي يرسمه وينشئه وفق هذا التصميم.
فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة؛ وأن تؤدي هذه الجفوة إلى الطلاق أو إلى الإعراض، الذي يتركها كالمعلقة، لا هي زوجة ولا هي مطلقة، فليس هنالك حرج عليها ولا على زوجها، أن تتنازل له عن شيء من فرائضها المالية أو فرائضها الحيوية، كأن تترك له جزءا أو كلا من نفقتها الواجبة عليه، أو أن تترك له قسمتها وليلتها، إن كانت له زوجة أخرى يؤثرها، وكانت هي قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها، هذا كله إذا رأت هي - بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها - أن ذلك خير لها وأكرم من طلاقها.
ثم يعقب على الحكم بأن الصلح إطلاقا خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق، فينسم على القلوب التي دبت فيها الجفوة

والجفاف، نسمة من الندى والإيناس، والرغبة في إبقاء الصلة الزوجية، والرابطة العائلية.
إن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله، فهو يحاول بكل وسائله المؤثرة أن يرفع هذه النفس إلى أعلى مستوى تهيئها له طبيعتها وفطرتها، ولكنه في الوقت ذاته لا يتجاهل حدود هذه الطبيعة والفطرة؛ ولا يحاول أن يقسرها على ما ليس في طاقتها؛ ولا يقول للناس: اضربوا رؤوسكم في الحائط فأنا أريد منكم كذا والسلام، سواء كنتم تستطيعونه أو لا تستطيعونه.
و"الشح" حاضر دائما في الأنفس، وهو دائما قائم فيها بأنواعه، الشح بالمال، والشح بالمشاعر، وقد تترسب في حياة الزوجين أسباب تستثير هذا الشح في نفس الزوج تجاه زوجته، فيكون تنازلها له عن شيء من مؤخر صداقها أو من نفقتها إرضاء لهذا الشح بالمال، تستبقي معه عقدة النكاح، وقد يكون تنازلها عن ليلتها إن كانت له زوجة أخرى أثيرة لديه والأولى لم تعد فيها حيوية أو جاذبية إرضاء لهذا الشح بالمشاعر، تستبقي معه عقدة النكاح، والأمر على كل حال متروك في هذا للزوجة وتقديرها لما تراه مصلحة لها، لا يلزمها المنهج الرباني بشيء؛ ولكنه فقط يجيز لها التصرف، ويمنحها حرية النظر والتدبر في أمرها وفق ما تراه.

وفي الوقت الذي يتعامل المنهج الإسلامي مع طبيعة الشح هذه، لا يقف عندها باعتبارها كل جوانب النفس البشرية، بل هو يهتف لها هتافا آخر، ويعزف لها نغمة أخرى، وهى الإحسان والتقوى.
فالإحسان والتقوى هما مناط الأمر في النهاية، ولن يضيع منهما شيء على صاحبهما، فإن الله خبير بما تعمله كل نفس؛

خبير ببواعثه وكوامنه، والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى، والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل، هتاف مؤثر، ونداء مستجاب، بل هو وحده الهتاف المؤثر والنداء المستجاب[١١٣].

إن الله الذي فطر النفس البشرية، يعلم من فطرتها أنها ذات ميول لا تملكها، من هذه الميول أن يميل القلب البشري إلى إحدى الزوجات ويؤثرها على الأخريات، فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات، وهذا ميل لا حيلة له فيه ولا يملك محوه أو قتله، فماذا؟ إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه؛ ولا يجعل هذا إثما يعاقبه عليه؛ فيدعه موزعا بين ميل لا يملكه وأمر لا يطيقه، بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء - ولو حرصوا - لأن الأمر خارج عن إرادتهم.

ولكن هنالك ما هو داخل في إرادتهم، هناك العدل في المعاملة، العدل في القسمة، العدل في النفقة، العدل في الحقوق الزوجية كلها، حتى الابتسامة في الوجه، والكلمة الطيبة باللسان، وهذا ما هم مطالبون به، هذا هو الخطام الذي يقود ذلك الميل لينظمه لا ليقتله، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة.فهذا هو المنهي عنه، الميل في المعاملة الظاهرة، والميل الذي يحرم الأخرى حقوقها فلا تكون زوجة ولا تكون مطلقة[١١٤].

ولأن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بجملة ما فيها من مزاج فريد مؤلف من القبضة من الطين والنفخة من روح الله، وبجملة ما فيها من استعدادات وطاقات، وبواقعيتها المثالية، أو

---

[١١٣] في ظلال القرآن – سيّد قطب

[١١٤] في ظلال القرآن – سيّد قطب

مثاليتها الواقعية، التي تضع قدميها على الأرض، وترف بروحها إلى السماء، دون تناقض ودون انفصام.
فإنه لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال، ولا بالقيود والأغلال؛ إنما يمسكهم بالمودة والرحمة؛ أو بالواجب والتجمل، فإذا بلغ الحال أن لا تبلغ هذه الوسائل كلها علاج القلوب المتنافرة، فإنه لا يحكم عليها أن تقيم في سجن من الكراهية والنفرة؛ أو في رباط ظاهري وانفصام حقيقي، "وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً"[١١٥].
فالله يعد كلا منهما أن يغنيه من فضله هو، ومما عنده هو؛ وهو سبحانه يسع عباده ويوسع عليهم بما يشاء في حدود حكمته وعلمه بما يصلح لكل حال[١١٦].

أسباب نزول الآية
نزلت الآية بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في الميراث وغير ذلك ؛ فأمر الله نبيه عليه السلام أن يقول لهم : الله يفتيكم فيهن ؛ أي يبين لكم حكم ما سألتم عنه. وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء ، وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا فقيل لهم : إن الله يفتيكم فيهن ١١٧.
قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: "كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك فلم يقدر أحد أن يتزوجها أبدا، وإن كانت جميلة وهويها تزوجها، وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه".

---

[١١٥] سورة النساء – آية ١٣٠
[١١٦] في ظلال القرآن – سيّد قطب
[١١٧] تفسير القرطبي - محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

وعن عائشة ـ رضي الله عنها: "هو الرجل تكون عنده اليتيمة، هو وليها ووارثها، فأشركته في ماله، حتى في العذق، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها فنزلت الآية"١١٨.

١١٨ أخرجه البخاري ومسلم

ـ السؤال العاشر ـ

ـ الكلالة ـ

ـ

"يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"

(سورة النساء – آية ١٧٦)

يسألك الناس يا "محمد" صلى الله عليه وسلم عن مسألة "الكلالة"، وهو الرجل يموت وليس له والد ولا ولد، فمن الذي يرثه؟، هل يرثه أخوه أو ترثه أخته؟، فأخبرهم أن هذا الميت إذا مات وليست له إلا أخت واحدة وليس له آباء ولا أبناء، فلأخته الشقيقة أو أخته من أبيه نصف الميراث من تركته، وأخوها الشقيق أو أخوها لأب يرث جميع تركتها إن لم يكن لها والد ولا ولد، وإذا كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما، وإن كان الورثة إخوة وأخوات فللذكر منهم مثل نصيب الأختين، وهذا يبينه سبحانه وتعالى حتى لا يخطىء الناس في قسمة المواريث، أو أن لا يسددوا فيقع الظلم والحيف على بعض الورثة وبخاصة من اليتامى والمساكين والإناث؛

ولذلك ختم الله سبحانه وتعهالى هذه السورة بحقوق النساء والأيتام والبنات والأخوات لضعفهن، وليذكر العباد ما لهن من الحقوق التي يجب أن تصان وأن تحترم وأن تؤدى إليهن كاملة مكملة[١١٩].

وهكذا تختم السورة التي بدأت بعلاقات الأسرة، وتكافلها الاجتماعي؛ وتضمنت الكثير من التنظيمات الاجتماعية في ثناياها، تختم بتكملة أحكام الكلالة، وهي على قول أبي بكر رضي الله عنه وهو قول الجماعة: "ما ليس فيها ولد ولا والد"[١٢٠].

وقد ورد شطر هذه الأحكام في أول السورة، وهو الشطر المتعلق بوراثة الكلالة من جهة الرحم حين لا توجد عصبة، وقد كان نصه هناك: "وإن كان رجل يورث كلالة" - أو امرأة - وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس" فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث - من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار - وصية من الله، والله عليم حليم.

فالآن يستكمل الشطر الآخر في وراثة الكلالة، فإن كانت للمتوفى، الذي لا ولد له ولا والد، أخت شقيقة أو لأب، فلها نصف ما ترك أخوها، وهو يرث تركتها - بعد أصحاب الفروض - إن لم يكن لها ولد ولا والد كذلك، فإن كانتا أختين شقيقتين أو لأب فلهما الثلثان مما ترك، وإن تعدد الإخوة والأخوات فللذكر مثل حظ الأنثيين - حسب القاعدة العامة في الميراث - والإخوة

---

[١١٩] التفسير الميسر د. عائض القرني

[١٢٠] في ظلال القرآن - سيد قطب

والأخوات الأشقاء يحجبون الإخوة والأخوات لأب حين يجتمعون.
وتختم آية الميراث، وتختم معها السورة، بذلك التعقيب القرآني الذي يرد الأمور كلها لله، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات، والأموال وغير الأموال بشريعة الله:
"يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم"
صيغة جامعة شاملة "بكل شيء" من الميراث وغير الميراث، من علاقات الأسر وعلاقات الجماعات، من الأحكام والتشريعات، فإما اتباع بيان الله في كل شيء، وإما الضلال، طريقان اثنان لحياة الناس لا ثالث لهما: طريق بيان الله فهو الهدى، وطريق من عداه فهو الضلال، وصدق الله: "فماذا بعد الحق إلا الضلال"؟[١٢١].

خلاصة السورة
افتتحت السورة بالأمر بالتقوى، وذكر بدء خلق الناس وتناسلهم، ثم بالأحكام المتعلقة بالبيوت: الأهل والعشيرة، وحقوق اليتامى والنساء المالية والأدبية، ومنها فرائض المواريث، وإرث النساء وعضلهن، وعقاب من يأتي الفاحشة من الجنسين، ومحرمات النكاح ومحللاته، وغير ذلك من أحكام الأزواج وحقوق الزوجية، فهذا نسق واحد في خمس وثلاثين آية، تتخللها على سنة القرآن الوصية بالتقوى، والترغيب في الطاعة والوعد عليها، والوعيد على المعاصي، وغير ذلك من المواعظ التي تغذي الإيمان بالله وتزكي النفس، وأما الآية

---

[١٢١] في ظلال القرآن - سيد قطب

الأخيرة منها، فهي ذيل للسورة في فتوى متممة لأحكام الفرائض التي في أوائلها[١٢٢].
وذكر الجلال السيوطي أن حسن الختام في هذه السورة أنها ختمت بآية الفرائض، وفيها أحكام الموت الذي هو آخر أمر كل حي، وهي أيضا آخر ما نزل من الأحكام والله بكل شيء من الأشياء التي من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم عليم مبالغ في العلم، فيبين لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم[١٢٣].

"يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة"، أي يطلبون منك أيها الرسول الفتيا في من يورث كلالة، فقل لهم: إن الله يفتيكم في الكلالة التي سألتم عنها.
والشائع أن الإنسان يموت عن تركة، بعد موت والديه؛ لأن المال الذي يتركه إما أن يكون ورثه منهما، وإما أن يكون اكتسبه، وإنما يكون الكسب في سن الشباب والكهولة ويقل في هذه الحال بقاء الوالدين، فلم يراع في الذكر إيجازا، وهو العمدة أن عدم إرث الإخوة والأخوات مع الوالد الذي يدلون به قد علم من آيات الفرائض التي أنزلت أولا وتقدمت في أوائل السورة، ومضت السنة في بيانها والعمل بها على ذلك، وعلم أيضا من القاعدة القياسية المأخوذة من تلك الآيات، ومن هذه الآية، وهي كون الأصل في الإرث أن يكون للذكر من كل صنف مثل حظ الأنثيين.

---

[١٢٢] تفسير المنار - محمد رشيد رضا

[١٢٣] تفسير الألوسي - شهاب الدين السيد محمود الألوسي

ومن قاعدة حجب الوالد لأولاده، قال تعالى في الآيات الأولى: فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث؛ أي: والباقي - وهو الثلثان - لأبيه عملا بالقاعدة فإن كان له إخوة فلأمه السدس، لأن أولادها يحجبونها حجب نقصان؛ فيكون ثلثها سدسا، والسدس الآخر يكون لهم عند ابن عباس، وأما الجمهور فيقولون: إن الباقي كله للأب؛ لأن الآية بيّنت أن وجودهما ينقص فرضها، ولم تفرض لهم شيئا، وعلى كل قول ليس لهم فرض مع وجود الأب الذي يحجبهم حجب حرمان؛ لأنهم لا يصلون إلى أخيهم إلا به، وما يتركه من هذا المال وغيره يعود إليهم؛ فلهذه الوجوه لم يكن لاشتراط عدم الأب فائدة فترك إيجازا؛ للعلم به من لفظ الكلالة ومن الآيات السابقة والقواعد الثابتة[١٢٤].

إن المولى عز وجل أمر نبيّه الكريم عليه الصلاة والسلام بأن يجيبهم بقوله "الله يفتيكم" للتنويه بشأن الفريضة، فتقديم المسند إليه للاهتمام لا للقصر، إذ قد علم المستفتون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا عن وحي، فهم لما استفتوه فإنما طلبوا حكم الله، فإسناد الإفتاء إلى الله تنويه بهذه الفريضة.
والمراد بالأخت هنا الأخت الشقيقة أو التي للأب في عدم الشقيقة بقرينة مخالفة نصيبها لنصيب الأخت للأم المقصودة في آية الكلالة الأولى، وبقرينة قوله: "وهو يرثها" لأن الأخ للأم لا يرث جميع المال إن لم يكن لأخته للأم ولد إذ ليس له إلا السدس.

---

[١٢٤] تفسير الألوسي - شهاب الدين السيد محمود الألوسي

وقوله: "إن امرؤ هلك" تقديره: إن هلك امرؤ، فامرؤ مخبر عنه بـ (هلك) في سياق الشرط، وليس (هلك) بوصف لـ (امرؤ) فلذلك كان الامرؤ المفروض هنا جنسا عاما.

وقوله: "وهو يرثها" يعود الضمير فيه على لفظ (امرؤ) الواقع في سياق الشرط، المفيد للعموم: ذلك أنه وقع في سياق الشرط لفظ (امرؤ) ولفظ (أخ) أو (أخت)، وكلها نكرات واقعة في سياق الشرط، فهي عامة مقصود منها أجناس مدلولاتها، وليس مقصودا بها شخص معين قد هلك، ولا أخت معينة قد ورثت، فلما قال: "وهو يرثها" كان الضمير المرفوع راجعا إلى (امرؤ) لا إلى شخص معين قد هلك؛ إذ ليس لمفهوم اللفظ هنا فرد معين فلا يشكل عليك بأن قوله: "امرؤ هلك" يتأكد بقوله: "وهو يرثها" إذ كيف يصير الهالك وارثا.

وأيضا كان الضمير المنصوب في (يرثها) عائدا إلى مفهوم لفظ أخت لا إلى أخت معينة، إذ ليس لمفهوم اللفظ هنا فرد معين، وعلم من قوله يرثها أن الأخت إن توفيت ولا ولد لها، يرثها أخوها، والأخ هو الوارث في هذه الصورة، وهي عكس التي قبلها، فالتقدير: ويرث الأخت امرؤ إن هلكت أخته ولم يكن لها ولد[١٢٥].

"والله بكل شيء عليم" يعلم مصالح العباد في المبدأ والمعاد، وفيما كلفهم به من الأحكام، وقال أبو عبد الله الرازي: في هذه السورة لطيفة عجيبة وهي أن أولها مشتمل على كمال تنزه الله تعالى وسعة قدرته، وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم،

---

[١٢٥] تفسير الألوسي - شهاب الدين السيد محمود الألوسي

وهذان الوصفان بهما تثبت الربوبية والإلهية والجلال والعزة، وبهما يجب أن يكون العبد منقادا للتكاليف[١٢٦].

أسباب نزول الآية

ذكر القرطبي في تفسيره أنه قيل: نزلت بسبب جابر؛ (قال جابر بن عبد الله: مرضت فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمي علي؛ فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صب علي من وضوئه فأفقت، فقلت: يا رسول الله كيف أقضي في مالي ؟ فلم يرد علي شيئا حتى نزلت آية الميراث "يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة"[١٢٧].

واتفق معه الزمخشري قائلا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق مكة عام حجة الوداع، فأتاه جابر بن عبد الله فقال: إن لي أختا، فكم آخذ من ميراثها إن ماتت؟ وقيل: كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني كلالة فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت "إن امرؤ هلك"،

كما وافق محمد الطاهر ابن عاشور في الرئيين السابقين في أسباب نزول الآية، وذهب أنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين اللاتي قبلها، فوقوعها عقبها لا يكون إلا لأجل نزولها عقب نزول ما تقدمها من هذه السورة مع مناسبتها لآية الكلالة السابقة في أثناء ذكر الفرائض؛ لأن في هذه الآية بيانا لحقيقة الكلالة أشار إليه قوله تعالى "ليس له ولد"، وقد تقدم في أول السورة أنه ألحق بالكلالة المالك الذي ليس له والد، وهو قول الجمهور[١٢٨].

---

[١٢٦] **التفسير الكبير المسمى البحر المحيط - أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف الأندلسي**

[١٢٧] رواه مسلم

[١٢٨] التحرير والتوير لإبن عاشور

فضمير الجماعة في قوله: "يستفتونك" غير مقصود به جمع، بل أريد به جنس السائلين، على نحو: "ما بال أقوام يشترطون شروطا" وهذا كثير في الكلام، ويجوز أن يكون السؤال قد تكرر وكان آخر السائلين جابر بن عبد الله فتأخر الجواب لمن سأل قبله، وعجل البيان له لأنه وقت الحاجة لأنه كان يظن نفسه ميتا من ذلك المرض وأراد أن يوصي بماله، فيكون من تأخير البيان إلى وقت الحاجة.
وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: "ما راجعت رسول الله في شيء مراجعتي إياه في الكلالة، وما أغلظ لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ما أغلظ لي فيها حتى طعن في نحري وقال يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء.

"الكلالة" في كتاب الله
وقد ذكر القرآن الكريم "الكلالة" في أربع آيات: آيتي هذه السورة المذكور فيها لفظ الكلالة، وآية في أول هذه السورة وهي قوله: "فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث"، وآية آخر الأنفال وهي قوله: "وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله"، عند من رأى توارث ذوي الأرحام، ولا شك أن كل فريضة ليس فيها ولد ولا والد فهي كلالة بالاتفاق، فأما الفريضة التي ليس فيها ولد وفيها والد فالجمهور أنها ليست بكلالة، وقال بعض المتقدمين: هي كلالة[١٢٩].

---

[١٢٩] التحرير والتوير لإبن عاشور

ـ السؤال الحادي عشر ـ

ـ صيد الجوارح المدرّبة ـ

"يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"
(سورة المائدة – آية ٤)

أخبرنا الله تعالى عن ما حرمه علينا من أكل الذبائح كالميتة ولحم والخنزير وغيرها لما فيها من أضرار تصيب الإنسان ولحكمة يعلمها سبحانه، ومن هنا فكل ما حرمه الله فهو خبيث، فكان ذلك التحريم دافعا لأن يسأل الصحابة عن المحلل من الأطعمة واللحوم، بعد ذكر المحرم، وأوضح لنا الحق سبحانه ما أحله لنا من المأكولات والمطعومات الطيبة التى يقبلها الله والتى يذكر عليها اسمه.

يستفتيك يا محمد الناس ما الذي أباح الله سبحانه وتعالى؟! فأخبرهم أن الله أباح لهم كل طيب، وهو النافع المفيد الذي ليس بخبيث قذر، وضار متلف، وحرّم عليهم ما استقذرته النفوس

وعافته الطباع السليمة، وكرهته الأنفس المستقيمة مثل: الخنزير والكلاب والفئران[١٣٠].

فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أتى ليحل الطيبات، وهى ما ينفع الجسم ولا يضر العقل ولا يتلف الحياة، ولا تتقذر منه النفس، وأتى بتحريم الخبائث، وهى كل ما فيه ضرر، أو ما استقبح واستقذر، ويجوز لكم صيد ما علّمتم من الجوارح مثل: صيد الكلب المُعلّم، والصقر، والباز ونحوها، والمُعلّم هو الذي ينطلق إلى الصيد إذا أرسلتموه، ويرتعد إذا ردعتموه، ولا يأكل من الصيد، وتذكرون اسم الله عليه إذا انطلق.

فهذه الكلاب يشترط فيها أن تكون مُدرّبة ومُعلّمة، وهذا ينبئك عن فضل العلم، حتى إن الله أباح صيد المعلم وحرّم صيد الكلب الجاهل، وعليكم بتقوى الله سبحانه وتعالى في كل أموركم ومراقبته والانتهاء عند نهيه وامتثال أمره، فهو سبحانه سوف يحاسب الجميع؛ فعقابه أليم لمن عصاه، وثابه عظيم لمن أطاع أمره واتقاه ، فعند قيامكم بأي عمل تذكروا ذاك اليوم يوم الحساب.

وبعد أن بُعث خير الأنبياء والمرسلين، أباح الله تعالى للمؤمنين كل نافع مفيد طيب طاهر من الطعام والشراب، وأحله رحمة بعباده، بعد أن حرّم بعضه عمن كان قبلهم، وأباح الله للمسلمين أيضا، طعام اليهود والنصارى وذبائحهم؛ لأنهم أهل كتاب بخلاف ذبائح المشركين فإنها مُحرّمة.

وأبيح لكم أيها المؤمنون زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات، والعفيفات اليهوديات والنصرانيات، وقال عطاء: "قد أكثر الله المسلمات وإنما رخص لهم يومئذ" أي دفعتم لهن مهورهن، ولا يجوز للمسلم المجاهرة بمعصية الله، بالزنا

---

[١٣٠] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

واتخاذ العشيقات والصديقات والفجور بهن، ومن يكفر بعد إيمانه بآيات الله فعمله محبط، وقد باء بالإثم وعاد بالخسران وأدركه الخذلان؛ لأنه عصى مولاه وخالف أمره وارتكب نهيه وخرج عن طاعته[١٣١].

شروط صحة الأكل من صيد الكلب المعلم
وعلامة المعلم أن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وأن يمسك الصيد فلا يأكل منه، وأن يذكر اسم الله عند إرساله، فهذه أربعة شروط لصحة الأكل من صيد الكلب المعلم.
قال الزمخشري: المكلب مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد لصاحبها، ورائضها لذلك بما علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف ، واشتقاقه من الكلب، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب فاشتق من لفظه لكثرته من جنسه.
فكلوا مما أمسكن لكم من الصيد إذا لم تأكل منه، فإن أكلت فلا يحل أكله لحديث "إذا أرسلت كلبك المعلم فقتل فكل، وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسكه على نفسه" أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم[١٣٢].

وهناك قاعدتان أصوليتان هما : الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالدليل، ليس هناك دليل على الإباحة بل دليل على التحريم، إذا قلت: هذا محرم، يجب أن تأتي بالدليل، أما أكل التفاح لا يحتاج للدليل، وشرب الماء البارد لا يحتاج لدليل، لأن الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالدليل، بالعبادات بالعكس الأصل فيها الحظر، ولا تشرع عبادة إلا

---

[١٣١] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني
[١٣٢] **صفوة التفاسير - محمد على الصابوني**

بالدليل، أن تخترع صلوات وعبادات وأذكار وتلزم أخوانك بما لم يلزم رسول الله أصحابه هذا ممنوع، الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالدليل، والأصل في العبادات الحظر ولا تشرع عبادة إلا بالدليل، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[١٣٣].

ولأن الله عز وجل قال:

"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً"[١٣٤]

في العبادات لا تشرع عبادة إلا بالدليل وفي المعاملات الأصل في الأشياء الإباحة:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ)

فجاء الجواب عاماً:

(قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ)

الأشياء التي تطيب به نفوسكم، هذا ينقلنا إلى أن العلاقة بين الأمر وبين نتيجته علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة، وأن العلاقة بين النهي وبين نتائجه علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة، لأن هذا أمر خالق الأكوان وأمر الخبير، لا يوجد أمر رمزي، كل شيء منعك الله منه يبدد سلامتك وسعادتك، وكل شيء أمرك الله به تطيب به نفسك.

الفقه الحقيقي أن ترى أن الحسن ما شرعه الله والقبيح ما حرمه الله:

هذا الكلام يقودنا إلى المثل التالي: إنك تمشي في الطريق فإذا بلوحة كتب عليها: حقل ألغام ممنوع التجاوز، لا شك أن معظم الناس يشعرون بامتنان لواضع هذه اللوحة، لا يرون فيها حداً

---

[١٣٣] **الدكتور محمد راتب النابلسي**

[١٣٤] سورة المائدة: ٣

لحريتهم بل يرون فيها ضماناً لسلامتهم، وأنت حينما تعتقد أن كل شيء نهاك الله عنه من أجل سلامتك وسعادتك وآخرتك، وأن كل شيء أمرك الله به هو قوام سلامتك وسعادتك هذا هو الفقه الحقيقي، أن ترى أن الحسن ما شرعه الله والقبيح ما حرمه الله.

فماذا أحل لكم؟ قل الطيبات طعام تطيب نفسك به، لكن طعام يمرضك لا يحل لك، كمٌ يمرضك لا يحل لك أن تسرف فيه، هناك نوع يفسد جسمك كلحم الخنزير ينبغي ألا تأكله، وهناك كمٌ من لحم الضأن يؤذي صحتك فينبغي ألا تسرف، فهناك شيء محرم نوعاً وشيء منهي عنه كماً، فحينما تعتقد أن الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع لأنه من عند الخبير، أو لأنه من الجهة الصانعة، أنت دون أن تشعر ودون أن تفكر حينما تقتني آلة غالية الثمن، عظيمة النفع، بالغة التعقيد، تحترم هذه الورقة التي جاءت معها وتنظر إليها على أنها من عند الصانع ومن الشركة الصانعة من عند الخبير، فتحرص على ترجمتها والتقيد بتفاصيلها، لأنك حريص على سلامة الآلة، وأنت أعقد آلة في الكون ولك صانع حكيم، وهذا الصانع الحكيم له تعليمات التشغيل والصيانة فينبغي أن تتبع التعليمات[١٣٥].

إن هذا السؤال من الذين آمنوا عما أحل لهم؛ يصور حالة نفسية لتلك الجماعة المختارة، التي سعدت بخطاب الله تعالى لها أول مرة؛ ويشي بما خالج تلك النفوس من التحرج والتوقي من كل ما كان في الجاهلية؛ خشية أن يكون الإسلام قد حرمه؛ وبالحاجة إلى السؤال عن كل شيء للتثبت من أن المنهج الجديد يرتضيه ويقره[١٣٦].

---

[١٣٥] الدكتور محمد راتب النابلسي

[١٣٦] **"في ظلال القرآن" - سيد قطب**

والناظر في تاريخ هذه الفترة يلمس ذلك التغيير العميق الذي أحدثه الإسلام في النفس العربية، لقد هزها هزا عنيفا، نفض عنها كل رواسب الجاهلية، لقد أشعر المسلمين الذين التقطهم من سفح الجاهلية ليرتفع بهم إلى القمة أنهم يولدون من جديد؛ وينشؤون من جديد، كما جعلهم يحسون إحساسا عميقا بضخامة النقلة، وعظمة الوثبة، وجلال المرتقى، وجزالة النعمة، فأصبح همهم أن يتكيفوا وفق هذا المنهج الرباني الذي لمسوا بركته عليهم، وأن يحذروا عن مخالفته، وكان التحرج والتوجس من كل ما ألفوه في الجاهلية هو ثمرة هذا الشعور العميق، وثمرة تلك الهزة العنيفة،

لذلك راحوا يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم بعدما سمعوا آيات التحريم: "ماذا أحل لهم"؟، ليكونوا على يقين من حله قبل أن يقربوه، وجاءهم الجواب :

قل: "أحل لكم الطيبات" وهو جواب يستحق التأمل، إنه يلقي في حسهم هذه الحقيقة: إنهم لم يحرموا طيبا، ولم يمنعوا عن طيب؛ وإن كل الطيبات لهم حلال، فلم يحرم عليهم إلا الخبائث، والواقع أن كل ما حرمه الله هو ما تستقذره الفطرة السليمة من الناحية الحسية، كالميتة والدم ولحم الخنزير، أو ينفر منه القلب المؤمن كالذي أهل لغير الله به أو ما ذبح على النصب، أو كان الاستقسام فيه بالأزلام، وهو نوع من الميسر.

ويضيف إلى الطيبات وهي عامة نوعا منها يدل على طيبته تخصيصه بالذكر بعد التعميم؛ وهو ما تمسكه الجوارح المعلمة المدربة على الصيد كالصقر والبازي، ومثلها كلاب الصيد، أو الفهود والأسود، مما علمه أصحابه كيف يكلب الفريسة : أي يكبلها ويصطادها[١٣٧].

---

[١٣٧] "في ظلال القرآن" - سيد قطب

والله يذكر المؤمنين بنعمته عليهم في هذه الجوارح المكلبة؛ فقد علموها مما علمهم الله، فالله هو الذي سخر لهم هذه الجوارح؛ وأقدرهم على تعليمها؛ وعلمهم هم كيف يعلمونها، وهي لفتة قرآنية تصور أسلوب التربية القرآني، وتشي بطبيعة المنهج الحكيم الذي لا يدع لحظة تمر، ولا مناسبة تعرض، حتى يوقظ في القلب البشري الإحساس بهذه الحقيقة الأولى: حقيقة أن الله هو الذي أعطى كل شيء، هو الذي خلق، وهو الذي علم، وهو الذي سخر؛ وإليه يرجع الفضل كله، في كل حركة، وكل كسب وكل إمكان يصل إليه المخلوق، فلا ينسى المؤمن لحظة أن من الله وإلى الله كل شيء في كيانه هو نفسه؛ وفيما حوله من الأشياء والأحداث؛ ولا يغفل المؤمن لحظة عن رؤية يد الله وفضله في كل عزمة نفس منه، وكل هزة عصب، وكل حركة جارحة، ويكون بهذا كله "ربانيا" على الاعتبار الصحيح.
والله يعلم المؤمنين أن يذكروا "اسم الله" على الصيد الذي تمسك به الجوارح، ويكون الذكر عند إطلاق الجارح إذ أنه قد يقتل الصيد بنابه أو ظفره؛ فيكون هذا كالذبح له؛ واسم الله يذكر عند الذبح، فهو يذكر كذلك عند إطلاق الجارح سواء.
ثم يردهم في نهاية الآية إلى تقوى الله؛ ويخوفهم حسابه السريع، فيربط أمر الحل والحرمة كله بهذا الشعور الذي هو المحور لكل نية وكل عمل في حياة المؤمن؛ والذي يحول الحياة كلها صلة بالله، وشعورا بجلاله، ومراقبة له في السر والعلانية :
ويستطرد في بيان ما أحل لهم من الطعام ويلحق به ما أحل لهم من النكاح:
"الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ

غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ" (سورة المائدة – آية ٥).

وهكذا يبدأ ألوان المتاع الحلال مرة أخرى بقوله: "اليوم أحل لكم الطيبات"، فيؤكد المعنى الذي أشرنا إليه؛ ويربط بينه وبين الألوان الجديدة من المتاع، فهي من الطيبات.

وهنا نطلع على صفحة من صفحات السماحة الإسلامية؛ في التعامل مع غير المسلمين، ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي "في دار الإسلام "، أو تربطهم به روابط الذمة والعهد، من أهل الكتاب.

إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية؛ ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مجفوين معزولين أو منبوذين إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة، والمجاملة والخلطة، فيجعل طعامهم حلا للمسلمين وطعام المسلمين حلا لهم كذلك، ليتم التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة.

وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم - وهن المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر - طيبات للمسلمين، ويقرن ذكرهن بذكر الحرائر العفيفات من المسلمات، وهي سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الديانات والنحل، فإن الكاثوليكي المسيحي ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية، أو البروتستانتية، أو المارونية المسيحية، ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة.

وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام مجتمع عالمي، لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية؛ ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة، التي تظلها راية المجتمع الإسلامي، فيما يختص بالعشرة والسلوك.

وشرط حل المحصنات الكتابيات ، هو شرط حل المحصنات المؤمنات :
"إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان"
ذلك أن تؤدى المهور، بقصد النكاح الشرعي، الذي يحصن به الرجل امرأته ويصونها، لا أن يكون هذا المال طريقا إلى السفاح أو المخادنة، والسفاح هو أن تكون المرأة لأي رجل؛ والمخادنة أن تكون المرأة لخدين خاص بغير زواج، وهذا وذلك كانا معروفين في الجاهلية العربية، ومعترفا بهما من المجتمع الجاهلي، قبل أن يطهره الإسلام، ويزكيه، ويرفعه من السفح الهابط إلى القمة السامقة.
ويعقب على هذه الأحكام تعقيبا فيه تشديد ، وفيه تهديد :
"ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين"
إن هذه التشريعات كلها منوطة بالإيمان؛ وتنفيذها كما هي هو الإيمان؛ أو هو دليل الإيمان، فالذي يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ويستره ويغطيه ويجحده، والذي يكفر بالإيمان يبطل عمله ويصبح ردا عليه لا يقبل منه، ولا يقر عليه، والحبوط مأخوذ من انتفاخ الدابة وموتها إذا رعت مرعى ساما، وهو تصوير لحقيقة العمل الباطل، فهو ينتفخ ثم ينعدم أثره كالدابة التي تتسمم وتنتفخ وتموت، وفي الآخرة تكون الخسارة فوق حبوط العمل وبطلانه في الدنيا.
وهذا التعقيب الشديد، والتهديد المخيف، يجيء على إثر حكم شرعي يختص بحلال وحرام في المطاعم والمناكح، فيدل على ترابط جزئيات هذا المنهج؛ وأن كل جزئية فيه هي "الدين"

الذي لا هوادة في الخلاف عنه، ولا قبول لما يصدر مخالفا له في الصغير أو في الكبير[١٣٨].

وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن: جوارح ، من الجرح ، وهو: الكسب، كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيرا، أي: كسبهم خيرا، ويقولون: فلان لا جارح له، أي: لا كاسب له، وقال الله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" [الأنعام : ٦٠] أي : ما كسبتم من خير وشر[١٣٩] .

أسباب نزول الآية

قال سعيد بن جبير : سأل عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير، يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت الآية.

وقيل أن سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل الكلاب قالوا : يا رسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزلت هذه الآية فلما نزلت أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها، ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها.

فبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى المحرمات من المطعومات التى تم تحريمها لعلة يعلمها الله أراد أن يذكر ما يحل للمسلمين من الطيبات، والجوارح مثل الكلب والسبع والذئب التى علمتموها

---

[١٣٨] "في ظلال القرآن" - سيد قطب

[١٣٩] **تفسير ابن كثير - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي**

من التدريب للاصطياد ويأتى به إلى سيده، وحتى أن الكلب إن قطع منه شئ يعتبر كالسهم وهو حلال، ويذبح بعد الصيد ويذكر اسم الله عليه "بسم الله.. الله أكبر" كما نرمى السهم ونصيب به الصيدة، شرع الله أن نقتنى من الجوارح ما يكون الغرض منه ما نصطاد به.

- السؤال الثاني عشر -

- غنائم الحرب -
- الأنفال -
(غنائم المعركة)

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ"

(سورة الأنفال – آية ١)

يخاطب الله جل شأنه نبيه صلى الله عليه وسلم يسألك بعض أصحابك يا رسول الله عن الأموال المغنومة فى بدر كيف تقسم؟ ومن المستحق لها؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه، ولرسوله صلى الله عليه وسلم فهو الذى يقسمها على حسب حكم الله وأمره فيها.
ونجد هنا فى الجواب القرآنى عما سألوا تربية حكيمة للسائلين ولغيرهم متمثلة فى أن الجهاد فى سبيل الله – عز وجل – لأجل إعلاء كلمة الله – تعالى – أما أعراض الدنيا التى تأتيهم من وراء جهادهم، فعليهم ألا يجعلوها ضمن غايتهم السامية من جهادهم، وأن يفوضوا الأجر فيها لله – عز وجل – ولرسوله صلى الله عليه وسلم عن إذعان وتسليم، فالله – جل شأنه – العليم بمصالح عباده، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله، والواجب الالتزام بتقوى الله – عز وجل فى كل أقوالكم

وأفعالكم، وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكونوا أحوال ألفة ومودة ومحبة، وأطيعوا الله ورسوله فى كل أمر ونهى، وقضاء وحكم، وتأتى التذكرة بالتقوى وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله، لتكون فى أعلى ما يجب التزامه والعمل به.

يسألونك يا محمد عن قسمة غنائم المعركة، فأخبرهم أن حكم قسمتها عند الله والرسول، فعليكم أنتم بتقوى الله وطاعته وخشيته والإنابة إليه، تصلح أموركم ويرزقكم من فضله، فحق الله تقواه، وحق الناس صلاح ذات البين بترك الخلاف والشقاق واجتناب البغضاء والشحناء، وأعيدوا كل خلاف لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فبهذا تحققون طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فمن أصلح ما بينه وبين الله وما بينه وبين الناس وحكّم الكتاب والسنة في حياته أفلح وفاز بخيري الدنيا والآخرة، هذا لمن كان صادقا في إيمانه مخلصا في طاعته[١٤٠].

كانت هزيمة أُحد مفاجأة لأصحابها، وكان نصر بدر مفاجأة لأصحابه، والمفاجآت كلها، سارّها وضارها أصدق الامتحانات لكشف معادن النفوس ومعرفة المخبوء فيها!

وقد جاءت سورة الأنفال في أعقاب انتصار المسلمين في بدر لتبين عمل القدر وجهد البشر، فأبانت أن النصر الذي أعز الله به المسلمين كان مفاجأة سماوية على صبر السنين الماضية وأن الرجال الذين خاضوا المعركة كانوا أدوات لتحقيق الآية الكريمة "كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ"[١٤١].

---

[١٤٠] **التفسير الميسر الدكتور عائض القرني**

[١٤١] سورة المجادلة آية ٢١

ولذلك بدأت السورة فقطعت تعلق المسلمين بالغنائم، وجعلت توزيعها لله ورسوله، فلا معنى للدعوى ولا للنزاعات في خير ساقه الله إلى طائفة من عباده١٤٢ "وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ"[١٤٣].

المقصود بالأنفال

والأنفال هي الزيادة ولذا قيل للتطوع نافلة، لأنها لكونها تبرعا غير لازم كأنها زيادة، ويسمى به الغنيمة أيضا وما يشترطه الإمام للغازي زيادة على سهمه لرأي يراه سواء كان لشخص معين أو لغير معين كمن قتل قتيلا فله سلبه، وجعلوا من ذلك ما يزيده الإمام لمن صدر منه أثر محمود في الحرب كمبارزة وحسن إقدام وغيرهما، وإطلاقه على الغنيمة باعتبار أنها منحة من الله تعالى من غير وجوب.

وقيل: لأنها زيادة على ما شرع الجهاد له وهو إعلاء كلمة الله تعالى وحماية حوزة الإسلام، فإن اعتبر كون ذلك مظفورا به سمي غنيمة، ومن الناس من فرق بين الغنيمة والنفل بالعموم والخصوص، فقيل: الغنيمة ما حصل مستغنما سواء كان ببعث أو لا باستحقاق أو لا قبل الظفر أو بعده، والنفل ما قبل الظفر أو ما كان بغير قتال وهو الفيء[١٤٤].

وهو في أصل اللغة من النفل - بفتح وسكون - أي الزيادة عن الواجب ومنه الصلاة النفل - قال الراغب: النفل هو الغنيمة بعينها، لكن اختلفت العبارة عنه لاختلاف الاعتبار فإنه إذا

---

[١٤٢] **محمد الغزالى نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم**

[١٤٣] سورة الأنفال – آية ٧

[١٤٤] **تفسير الألوسي**

اعتبر بكونه مظفورا به، يقال: غنيمة، وإذا اعتبر بكونه منحة من الله ابتداء من غير وجوب يقال له: نفل، ومنهم من فرق بينهما من حيث العموم والخصوص، فقال: الغنيمة كل ما حصل مستغنما بتعب كان أو بغير تعب، وباستحقاق أو بغير استحقاق، وقبل الظفر كان أو بعده، والنفل ما يحصل للإنسان قبل القسمة من جملة الغنيمة[١٤٥].

والمعنى: يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هي؟ أللشبان أم للمشيخة؟ أم للمهاجرين أم للأنصار قل الأنفال لله والرسول أي: قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه، وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى ، وقد قسمها صلى الله عليه وسلم بالسواء، وهذا لا ينافي التفصيل الذي سيأتي في قوله تعالى: "وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[١٤٦].

فيكون التفصيل ناسخا للإجمال كما قال مجاهد وعكرمة والسدي ، فالصواب قول ابن زيد : إن الآية محكمة ، وقد بيّن الله مصارفها في آية الخمس، وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس فاتقوا الله في المشاجرة والخلاف والتنازع ، وسيأتي في الصورة مضار ذلك ولا سيما في حال الحرب، وأصلحوا ذات بينكم أي: أصلحوا نفس ما بينكم ، وهي الحال والصلة التي بينكم تربط بعضكم ببعض وهي رابطة الإسلام.

---

[١٤٥] **تفسير المنار – محمد رشيد رضا**

[١٤٦] سورة الأنفال – آية ٤١

وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الأثرة والتفرق، والإيثار أيضا، والبين في أصل اللغة يطلق على الاتصال والافتراق ، وكل ما بين طرفين كما قال: "لقد تقطع بينكم" ويعبر عن هذه الرابطة بذات البين.

وأمرنا في الكتاب والسنة بإصلاح ذات البين، فهو واجب شرعا تتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها وأطيعوا الله ورسوله في الغنائم وفي كل أمر ونهي وقضاء وحكم ، فالله تعالى يطاع لذاته؛ لأنه رب العالمين ، ومالك أمرهم ، والرسول يطاع في أمر الدين؛ لأنه مبلغ له عن الله تعالى، ومبين لوحيه فيه بالقول والفعل والحكم.

وهذه الطاعة له تعبدية لا رأي لأحد فيها، وتتوقف عليها النجاة في الآخرة والفوز بثوابها ، ويطاع في اجتهاده في أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة، ولا سيما الحرب من حيث إنه الإمام القائد العام ، فمخالفته إخلال بالنظام العام، وإفضاء إلى الفوضى التي لا تقوم معها للأمة قائمة، فهذه الطاعة واجبة شرعا كالأولى إلا أنها معقولة المعنى، فقد أمره الله تعالى في تنفيذ أحكامه، وإدارته بمشاورة الأمة، وأشرك معه في هذه الطاعة أولي الأمر[١٤٧].

والسؤال حقيقته الطلب، فإذا عدي بعن فهو طلب معرفة المجرور بعن وإذا عدي بنفسه فهو طلب إعطاء الشيء، فالمعنى هنا: يسألونك معرفة الأنفال، أي معرفة حقها فهو من تعليق الفعل باسم ذات والمراد حالها بحسب القرينة مثل حرمت عليكم الميتة وإنما سألوا عن حكمها صراحة وضمنا في ضمن سؤالهم الأثرة ببعضها.

---

[١٤٧] تفسير المنار – محمد رشيد رضا

ومجيء الفعل بصيغة المضارع دال على تكرر السؤال، إما بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين، وإما بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد[١٤٨].

وتبدأ السورة ببيان حكم الله في الأنفال، المغانم التي يغنمها المسلمون في جهادهم في سبيل الله، بعد ما ثار بين أهل بدر من الجدال حول تقسيمها، فردهم الله إلى حكمه فيها كما ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله واستجاش في قلوبهم وجدان الإيمان والتقوى[١٤٩].

ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا لأنفسهم من العير والغنيمة، وما أراده الله لهم من النصر والعزة، وكيف سارت المعركة وهم قلة لا عدد لها ولا عدة، وأعداؤهم كثرة في الرجال والعتاد؟، وكيف ثبتهم بمدد من الملائكة؟، وبالمطر يستقون منه ويغتسلون ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ في الرمال، وبالنعاس يغشاهم فيسكب عليهم السكينة والاطمئنان، وكيف ألقى في قلوب أعدائهم الرعب وأنزل بهم شديد العقاب؟.

ومن ثم يأمر المؤمنين أن يثبتوا في كل قتال، مهما خيل إليهم في أول الأمر من قوة أعدائهم، فإن الله هو الذي يقتل، وهو الذي يرمي، وهو الذي يدبر، وإن هم إلا ستار لقدر الله وقدرته، يفعل بهم ما يشاء.

ثم يسخر من المشركين الذين كانوا قبل الموقعة يستفتحون، فيطلبون أن تدور الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم، فيقول لهم: "إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ

---

١٤٨ التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور

١٤٩ "في ظلال القرآن" سيّد قطب

خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ المُؤْمِنِينَ"[١٥٠].

ويحذر المؤمنين أن يتشبهوا بالمنافقين الذين يسمعون ولكنهم لا يسمعون، لأنهم لا يستجيبون! وينتهي الدرس بنداءات متكررة للذين آمنوا، ليستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم - ولو خيل إليهم أنه الموت والقتل - وليذكرهم كيف كانوا قليلا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس، فآواهم وأيدهم بنصره وليعدهم أن يجعل لهم فرقانا في قلوبهم وفي حركتهم إن هم اتقوه، ذلك إلى تكفير السيئات وغفران الذنوب وما ينتظرهم من فضل الله الذي تتضاءل دونه الغنائم والأنفال[١٥١].

وقد يدهش الإنسان حين يرى أهل بدر يتكلمون في الغنائم وهم إما من المهاجرين السابقين الذين تركوا وراءهم كل شيء، وهاجروا إلى الله بعقيدتهم، لا يلوون على شيء من أعراض هذه الحياة الدنيا وإما من الأنصار الذين آووا المهاجرين، وشاركوهم ديارهم وأموالهم، لا يبخلون بشيء من أعراض هذه الحياة الدنيا أو كما قال فيهم ربهم: "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ"[١٥٢].

لقد كانت الأنفال مرتبطة في الوقت ذاته بحسن البلاء في المعركة وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء، وكان الناس يومئذ حريصين على هذه الشهادة من رسول الله صلى الله عليه

---

[١٥٠] سورة الأنفال – آية ١٩

١٥١ "في ظلال القرآن" سيّد قطب

١٥٢ سورة الحشر – آية ٩

وسلم ومن الله سبحانه وتعالى، في أول وقعة يشفي فيها صدورهم من المشركين.
وهذا الحرص غطى وغلب على أمر آخر نسيه من تكلموا في الأنفال حتى ذكرهم الله سبحانه به، وردهم إليه، ذلك هو ضرورة السماحة فيما بينهم في التعامل، والصلاح بين قلوبهم في المشاعر حتى أحسوا ذلك في مثل ما قاله عبادة بن الصامت رضي الله عنه: " فينا - أصحاب بدر - نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم".
ولقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولا وعملا، نزع أمر الأنفال كله منهم ورده إلى رسوله صلى الله عليه وسلم حتى أنزل حكمه في قسمة الغنائم بجملتها، فلم يعد الأمر حقا لهم يتنازعون عليه إنما أصبح فضلا من الله عليهم يقسمه رسول الله بينهم كما علمه ربه[١٥٣].

أسباب نزول الآية

روى أن بعد هزيمة المشركين فى بدر، انطلقت فى آثارهم طائفة من المسلمين، وأقبلت طائفة أخرى يحمون معسكر المسلمين، ولما جاءت الطائفة الأولى بغنائم قالوا: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب، وقال آخرون: نحن حمينا المعسكر فشغلنا عن ذلك.
روى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قتل قتيلا فله كذا وكذا، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا ، فأما المشيخة (أي المشايخ) فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان: "إنا كنا لكم ردءا ولو كان منكم شيء

---

١٥٣ "في ظلال القرآن" سيّد قطب

للجأتم إلينا، فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية الكريمة.
وذلك في غزوة بدر وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه واستوهبه النبي صلى الله عليه وسلم فمنعه إياه، وأن الآية نزلت في ذلك فأعطاه إياه؛ لأن الأمر وكل إليه صلى الله عليه وسلم، عن ابن جرير: أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمس بعد الأربعة الأخماس فنزلت هذه الآية ، وجملة القول : أنها نزلت في غنائم غزوة بدر تنازع فيها حائزوها من الشبان وسائر المقاتلة، وقيل: المهاجرون والأنصار[١٥٤].
والمسلمون لم يعلموا ماذا يكون في شأن المسمى عندهم "الأنفال" وكان ذلك يوم بدر، وأنهم حاوروا رسول الله عليه الصلاة والسلام في ذلك، فمنهم من يتكلم بصريح السؤال، ومنهم من يخاصم أو يجادل غيره بما يؤذن حاله بأنه يتطلب فهما في هذا الشأن، وقد تكررت الحوادث يومئذ: ففي صحيح مسلم، وجامع الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر أصبت سيفا لسعيد بن العاصي فأتيت به النبي فقلت : نفلنيه فقال: ضعه في القبض، ثم قلت نفلنيه فقال: ضعه حيث أخذته، ثم قلت نفلنيه فقال ضعه من حيث أخذته، فنزلت يسألونك عن الأنفال وفي أسباب النزول للواحدي، وسيرة ابن إسحاق عن عبادة بن الصامت، "أنه سئل عن الأنفال فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل يوم بدر فانتزعه بيننا"[١٥٥].

---

[١٥٤] تفسير المنار - محمد رشيد رضا

[١٥٥] التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور

السؤال الثالث عشر

- الروح -

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً"

(سورة الإسراء – آية ٨٥).

الروح سر من أسرار الله ومخلوق من مخلوقاته أودعه فى أجساد البشر فبالروح والجسد تدب الحياة، وبالرغم من أنها مخلوق داخل الإنسان إلا أنه لا يستطيع إدراكها بأى وسيلة، ومع كل ما توصلت إليه البشرية من علم فهو قليل لتظل الحقيقة الثابتة أن الروح من أمر الله.
وتأتى الآية جوابا لسؤال اليهود عن الروح وحقيقتها وماهيتها فأتى الجواب القرآنى القاطع "قل الروح من أمر ربى" - أى أن الروح سر من أسرار الله لا يستطيع العقل البشرى أن يدركها - وهذا من الإعجاز العلمى للقرآن الكريم، ولون من ألوان التحدى فالله يتحدى البشر فى كل وقت وحين بهذا السر الإلهى ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى "وما أوتيتم من العلم إلا قليل" - أى مهما بلغتم من العلم والاكتشافات - فإن هناك أسرارا تخفى عليكم ومن أهمها الروح التى حارت فيها الأفهام وفى هذا دليل على عجز الإنسان أمام قدرة الرحيم الرحمن.

وتوهم اليهود بأنهم سيحرجون النبى بهذا السؤال لاسيما وأنه سؤال متعلق بشيء غيبى عجزت كل العقول البشرية عن إدراكه منذ أن خلق الله الإنسان، فالروح خلقها الله تعالى وأودعها بين جنبى الإنسان ومع هذا فلا يستطيع أحد أن يقف على حقيقتها وكنهها وأين مكانها، فإذا ما قُبض الإنسان ومات خرجت الروح، فالروح سر إلهى أودعه الله فى الإنسان وقد حارت العقول فى إدراك حقيقة الروح.

ويسألك الكفار عن الروح ما هى؟ وما حقيقتها؟، تعجيزا ومكابرة، فأجبهم بأن أسرار الروح وحقيقتها مما استأثر الله بعلمه لا يعلم ذلك إلا الله وحده، وما أُعطى الناس من العلم بالنسبة إلى علم الله تعالى إلا شيئا قليلا، وهذا القليل هم درجات فيه[١٥٦].

وراح بعضهم يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح ما هو؟ والمنهج الذي سار عليه القرآن وهو المنهج الأقوم أن يجيب الناس عما هم في حاجة إليه، وما يستطيع إدراكهم البشري بلوغه ومعرفته؛ فلا يبدد الطاقة العقلية التي وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر، وفي غير مجالها الذي تملك وسائله وتحيط به، فلما سألوه عن الروح، أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمر الله، اختص بعلمه دون سواه[١٥٧].

"قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"، وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل، ولكن فيه توجيهاً لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الذي يدركه، فلا جدوى من الخبط في التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنه لا يملك وسائل إدراكه.

---

[١٥٦] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

[١٥٧] "في ظلال القرآن" - سيّد قطب

والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشري وبعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها، وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود، والإنسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة، إنما وهب منها بقدر محيطة وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه، في حدود علمه القليل .

ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع؛ ولكنه وقف حسيراً أمام ذلك السر اللطيف الروح لا يدري ما هو، ولا كيف جاء، ولا كيف يذهب، ولا أين كان ولا أين يكون، إلا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل[١٥٨] .

وما جاء في التنزيل هو العلم المستيقن، لأنه من العليم الخبير، ولو شاء الله لحرم البشرية منه، وذهب بما أوحى إلى رسوله؛ ولكنها رحمة الله وفضله.

"وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً"[١٥٩]

والله يمتن على رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الفضل، فضل إنزال الوحي، واستبقاء ما أوحى به إليه؛ المنة على الناس أكبر، فهم بهذا القرآن في رحمة وهداية ونعمة، أجيالاً بعد أجيال.

وكما أن الروح من الأسرار التي اختص الله بها فالقرآن من صنع الله الذي لا يملك الخلق محاكاته، ولا يملك الإنس والجن وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفي ان يأتوا بمثله، ولو تظاهروا وتعاونوا في هذه المحاولة: "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ

---

[١٥٨] "في ظلال القرآن" - سيّد قطب

[١٥٩] سورة الإسراء – آية ٨٦

وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً"[١٦٠].

فهذا القرآن ليس ألفاظاً وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه، هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره.

وهو منهج حياة كامل، منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التي تصرف النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها، والتي تصرف الجماعات الإنسانية في كل ظروفها وأطوارها، ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة، ويعالج الجماعة المتشابكة، بالقوانين الملائمة للفطرة المتغلغلة في وشائجها ودروبها ومنحنياتها الكثيرة[١٦١].

وسؤالهم عن الروح معناه أنهم سألوه عن بيان ماهية ما يعبر عنه في اللغة العربية بالروح ، والتي يعرف كل أحد بوجه الإجمال أنها حالة فيه .

والروح: يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير ، وهو الذي يتقوم في الجسد الإنساني حين يكون جنينا بعد أن يمضي على نزول النطفة في الرحم مائة وعشرون يوما ، وهذا الإطلاق هو الذي في قوله تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي"، وهذا يسمى أيضا بالنفس كقوله: "يا أيتها النفس المطمئنة" . ويطلق الروح على الكائن الشريف المكون بأمر إلهي بدون سبب اعتيادي ، ومنه قوله تعالى: "وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا" وقوله: "وروح منه".

---

[١٦٠] سورة الإسراء – آية ٨٨

[١٦١] المصدر السابق - "في ظلال القرآن" - سيّد قطب

ويطلق لفظ الروح على الملك الذي ينزل بالوحي على الرسل، وهو جبريل عليه السلام، ومنه قوله تعالى: "نزل به الروح الأمين على قلبك"[١٦٢].

أسباب نزول الآية

فقد روى أنها مكية، وأنها نزلت ردا على المتسائلين من مكة الذين أوعز إليهم بعض اليهود المتصلين به ليسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح[١٦٣].

وروى بجانب هذه رواية أخرى تقول إنها نزلت في المدينة ردا على سؤال اليهود أنفسهم وكلتا الروايتين صحيحة السند، فكيف نرجح بينهما وكيف نختار؟.

لقد اختار العلماء أن الآية نزلت بالمدينة ردا على اليهود فيها والذي حملهم على هذا الترجيح هو وجود مرجح في هذه الرواية وهو أولا ما ذكر فيها من أن عبدالله بن مسعود كان حاضرا وقت نزولها وروايته لها حين قال: "كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرث المدينة وهو متوكأ على عسيب – أي جريد النخل – فمر بنفرد من اليهود فقال بعضهم لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي، ثم قال: قل الروح من أمر ربي" فهذا ابن مسعود شاهد عيان يحكى ما شاهده.

أما الراواية الأخرى فعن ابن عباس وهو لم يكن شاهدا للواقعة في مكة، وثانيا الذي روى رواية ابن مسعود وأثبتها هو البخارى، وأما الثانية فقد رواها الترمذي[١٦٤].

---

[١٦٢] التحرير والتنوير - محمد الطاهر ابن عاشور

[١٦٣] علوم القرآن الكريم الدكتور عبد المنعم النمر

السؤال الرابع عشر

- ذى القرنين -

"وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً"

(الكهف: ٨٣ ـ ٨٥)

يذكر القرآن الكريم أن ذي القرنين كان ملكا مؤمنا صالحا، فمكن الله تعالي له في الأرض، وقوى ملكه، ويسر له فتوحاته، وذكر أن الأرض ملكها أربعة، اثنان مؤمنان وهما سليمان عليه السلام وذى القرنين، واثنان كافران وهما النمرود وبختنصر.

ويسألك الكفار عن قصة الملك الصالح ذي القرنين، فأجبهم بأنك ستخبرهم عنه بخبر صحيح يكون عبرة وعظة لهم.
إن الله تبارك وتعالى مكّن له في الأرض، وأعطاه مما يحتاج إليه في مملكته من الأسباب والوسائل والأساليب التي يدبر بها شئون بلاده ويفتح بها المدن وينتصر على الأعداء.
فأخذ بتلك الأسباب والوسائل واستعمل تلك الطرق بجد وقوة وهمّة واجتهاد.

---

[١٦٤] نفس المصدر - علوم القرآن الكريم الدكتور عبد المنعم النمر

فلما وصل ذو القرنين إلى مغرب الشمس وجدها بالنسبة إلى رؤية العين كأنها في عين حارة ذات طين أسود، ووجد عند مغرب الشمس بشرا، فأمره ربه إما أن يعذبهم بالقتل أو بالأسر والسبي إذا لم يؤمنوا بالله، وإما أن يأخذهم بالرفق واللين والتي هى أحسن من الدعوة إلى الهدى بالحلم[١٦٥].

قال ذو القرنين: أما من كفر بالله فسوف أعاقبه في الدنيا ثم إذا عاد إلى الله يوم القيامة عذبه في نار جهنم خالدا ، وأما من آمن بالله واتبع رُسله، وأطاع أمره واجتنب نهيه فله عند الله جنات النعيم، وسوف نكرمه في الدنيا، ونرفق به ونسدى إليه خيرا.

ثم عاد ذو القرنين إلى المشرق آخذا لما أعطاه الله من وسائل وأسباب بجد واجتها.

فلما وصل ذو القرنين إلى مطلع الشمس وجد هناك قوما ليس لديهم ساتر يحجب عنهم حرارة الشمس ولا شجر يظلهم منها.

وكذلك قد اطلع الله على ما عند ذي القرنين من الوسائل والأسباب، وعلم سبحانه بكل ما عنده، لا تخفى عليه خافية سبحانه.

ثم واصل ذو القرنين المسير مستعملا ما وهبه الله من قوة وعدة وعتاد، بهمة وصبر.

فلما وصل ذو القرنين إلى ما بين الجبلين الحاجزين لما خلفهما وجد من دون الجبلين أناسا لهم لغة خاصة بهم، لا يكادون يفهمون كلام سواهم.

فقالوا له : يا ذا القرنين، إن قبيلتي يأجوج ومأجوج يفسدون في الأرض بالقتل والأسر والظلم والاستيلاء على أموال الناس غصبا، ويقطعون السبيل، فهل نجمع لك من عندنا مالا لأجرة لك مقابل بناء حاجز عظيم يحول بيننا وبين يأجوج ومأجوج.

---

[١٦٥] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

قال ذو القرنين: الذي رزقنيه الله من المُلك والمال أفضل مما عندكم، لكن ساعدوني بقوة أيديكم لأبني بينكم وبينهم سدا منيعا يمنع أذاهم عنكم.
هاتوا لي قطع الحديد واجمعوا لي، فلما أحضروا الحديد ووضعوا بعضه على بعض وحاذوا به جانب الجبلين، قال لأعوانه: أشعلوا نارا عظيمة فلما ذاب الحديد، قال لأعوانه: أعطوني نحاسا أفرغها عليه ليكون أصلب وأقوى[١٦٦].
فما قدرت يأجوج ومأجوج أن تعلو فوق السد؛ لارتفاعه، وما قدرت أن تخرق السشد من أسفله؛ لقوته ورسوخه في الأرض.
قال ذو القرنين: هذا الحاجز الذي جعلته مانعا من أذى يأجوج ومأجوج من رحمة الله بي وبالناس الذين طلبوا مني ذلك؛ لما فيه الخير ودفع الشر، فإذا حان وقت القيامة فسوف يهدمه الله ويسوية بالأرض، ووعد الله واقع لا محالة، والله لا يخلف الميعاد.
وترك الله يأجوج ومأجوج يختلط بعضهم ببعض؛ لكثرتهم، فإذا نُفخ في القرن للبعث والنشور، جمع الله الخليقة بأسرها للحساب والجزاء[١٦٧].
في بداية الآية الكريمة يقول الحق سبحانه وتعالى:
"ويسألونك".. معنى هذا أن هناك سائلا ومسئولا، الذي سئل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين سألوه هم اليهود لأنهم أهل كتاب[١٦٨].
لماذا رويت القصة

---

[١٦٦] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني
[١٦٧] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني
[١٦٨] **سورة الكهف - لفضيلة الإمام الراحل محمد متولي الشعراوي**

يقول الله سبحانه وتعالى: "وآتيناه من كل شئ سببا فأتبع سببا" أي أنه لم يأخذ الأسباب وسكت دون أن يعطى سببا، بل عندما أعطاه الله الأسباب، استخدمها في الوصول إلى الأهداف التي أعطيت له من أجلها، والملك في الأرض عطاء من الله سبحانه وتعالى للبشر، لا يأتيهم بأسبابهم ، ولكن بأسباب الله مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[١٦٩].

وهكذا نرى أن الملك يكون بأسباب الله، وليس بأسباب البشر، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: "وتنزع الملك ممن تشاء" أي ينزع من الناس بغير إرادتهم، ولو كان الملك بأسباب البشر لاحتفظوا به وما نزع منهم حتى الكافر يأخذ الملك بأسبابي الله، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"[١٧٠].

وهنا يخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن ذلك الكافر الذي أتاه الله الملك، فأخذ أسباب الله في الملك، وبدلا من أن يوجهها في الإصلاح، وجهها إلى الكفر والإلحاد والتكبر، وادعى أنه يحيي ويميت!

الحق سبحانه وتعالى يعطينا الصورة والمقابل، فصورة الصلاح والإصلاح أعطاها لنا في قصة ذي القرنين، وصورة الفساد والإفساد أعطاها لنا في قصة ذلك الكافر الذي غرته أسباب ملكه الدنيوي، فكفر بالله سبحانه وتعالى.

---

[١٦٩] سورة آل عمران آية ٢٦

[١٧٠] سورة البقرة آية ٢٥٨

الأسباب وأحداث الزمن

ذو القرنين أعطاه الله سبحانه وتعالى أسباب الملك، لقد روى لنا الله تبارك وتعالى ماذا فعل ذو القرنين في أحداث الزمن مادام ممكّنا، أي مادام أوتي من القوة والقدرة ما يستيطع ما يستطيع به أن يعدل الميزان بين الحق والباطل وبين المحسن والمسيء[١٧١].

في كل مجتمع هناك محسن وهناك مسيء، محسن مستمر في إحسانه، ومسيء مستمر في معصيته وإفساده.

ماذا يفعل الممكن في الأرض، أيقف يراقب ما يحدث دون أن يتدخل؟ أو يقول لا شأن لي لا بهؤلاء ولا بهولاء؟ لا ليس هذا هو الهدف من أن الله مكنه في الأرض بل لابد أن يعطي للمحسن طاقة تزيده إحسانا للمسيء عقوبة تناسب جريمته، حتى يعتدل الميزان في الكون.

إذا فالمحسن المصلح في الأرض لا نجعله يقف عند إحسانه، بل نعطيه الطاقة التي تزيد هذا الإحسان بأن نشجعه بالحوافز أو نكرمه ونعطى له نيشانا، المهم أنه يلقى نوعا من التقدير يزيده إحسانا.

أما المسيء فنضرب على يده حتي يترك الإساءة، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: "حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً"[١٧٢]، إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستقيم الميزان في الحياة.

بعض الناس يتسائل هنا ألا يوجد حساب في الآخرة؟، ألا يوجد عذاب أليم لأولئك العاصين المفسدين؟، ألا يكفي لاعتدال ميزان

---

[١٧١] سورة الكهف - لفضيلة الإمام الراحل محمد متولي الشعراوي

[١٧٢] سورة الكهف – الآية ٨٦

الحياة أن يعرف المسىء أنه سيعذب في نار جهنم عذابا خالدا مهينا أليما حتى يمتنع عن المعصية والسوء والإفساد؟.
وهنا يجيب فضيلة الإمام الراحل الشيخ محمد متولى الشعراوي بقوله: لا لأنه يوجد في الدنيا الكافرون بالله الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يعتقدون أن هناك يوما للحساب وأن مصيرهم إلى النار.
هؤلاء غير المؤمنين بالله وبالآخرة، أنتركهم هكذا يفسدون في الأرض ويعبثون فيها؟، لا وإنما لابد أن يكون هنا في الدنيا عقاب قبل عقاب الآخرة، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى : "قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً" آية ٨٧، من هذه الآية الكريمة نعرف أن هناك عذابا أولا في الدنيا، وعذابا في الآخرة، ما فائدة العذاب الأول في الدنيا؟، فائدته أن يعدل ميزان الحياة عند من لا يؤمن بالآخرة، فلا نترك الناس تعيث فسادا في الأرض دون أن يحاسبوا، فالعذاب الدنيوي لا بد منه حتى يمكن للمجتمعات أن تقوم، ولذلك نرى أنه حتى الدول الكافرة التي لا تؤمن بالآخرة لابد أن تأخذ بالعذاب الدنيوي كضرورة اجتماعية.
إن هذه الدول رغم عدم إيمانها أخذت بمنهج الله في ضرورة وجود عقوبات دنيوية، إنها لم تأخذ به إيمانا، ولكن أخذته اضطرارا رغم عنها، لأنها وجدت أنه لا يمكن أن تستقيم الحياة إلا بعد أن يوجد العذاب الدنيوي أولا بالنسبة لمن يفسد في الأرض.

لابد من الثواب والعقاب
لقد أوجب الله العقوبة الدنيوية على من أفسد قبل أن يقع أي إفساد في المجتمع، إن الدول غير المؤمنة لم تأخذ بنظرية العقاب أو العذاب الدنيوي إلا بعد أن عانت معاناة شديدة من

الفساد في المجتمع، بعد أن حدث هذا الفساد وانتشر، لكن هناك من ظلموا في الدنيا وأفسدوا دون أن ينالهم العذاب أو دون أن يعاقبوا، ما حكم هؤلاء؟.

ويوضح فضيلة الإمام ـ رحمه الله ـ حسابهم في الآخرة ولذلك من عدل الله سبحانه وتعالى أن من يفلت من عقاب الدنيا ينتظره عقاب الآخرة لنعلم أنه لا أحد يفلت من عقاب الدنيا، ينتظره عقاب الآخرة، لنعلم أنه لا أحد يفلت من الحساب أو العقاب.

وظيفة الممكن في الأرض أن يضع العقوبات الدنيوية للمفسد والظالم في المجتمع، وأن تكون هذه العقوبة التي يفرضها الممكن في الأرض مناسبة متناسبة مع بشريته، لكن هذا ليس نهاية الجزاء، بل أنه بعد ذلك يرد إلى الله سبحانه وتعالى لينال جزائه لا على قدر قدرات البشر، ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى، وليس عذابا موقوتا، أي محدد الوقت، إما بنهاية العقوبة أو بنهاية الحياة، ولكنه عذاب يكون فيه خالدا مخلدا.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى العقوبات الدنيوية لكى تستقيم الحياة الدنيا، حتى لا يموت المظلوم دون أن يرى القصاص من ظالمه في الدنيا لتستقيم الحياة.

إننا لو تركنا المفسدين في الأرض بلا عذاب دنيوي لانتشر الفساغد وانتشار الفساد يعاني منه المؤمن وغير المؤمن، لأن الفساد في المجتمع لا يعاني منه الكافر وحده، بل ربما كان الكافر أقل الناس معاناة لأنه ينضم إلى موكب الفساد، ويكون من جنوده ويحاول أن يستفيد منه، أما المؤمن فهو إنسان يعيش بقيم المنهج التي تمنعه من الانضمام لموكب الفساد،

وتمنعه من ظلم الناس، ولذلك فهو يعاني أكثر من غيره من الفساد في المجتمع[١٧٣].

عطاء الله للمؤمنين

أراد الله سبحانه وتعالى أن يحمى عباده المؤمنين فقال إن مهمة من يؤتيه الله الملك ويعطيه الأسباب أن يضرب على يد المفسد وبذلك يحمي الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين من شر انتشار الفساد في الأرض في حياتهم الدنيا، وجعل مهمة من يؤتيه الله الملك أن يفعل ذلك فإن لم يفعل وانضم إلى المفسدين ونشر الظلم والفساد في الأرض سلط الله سبحانه وتعالى عليه من هو أظلم منه لينتقم منه حتى يتم العقاب الدنيوي وليرى الناس أن الظلم لا يمكن أن يؤدي إلا إلى هلاك أهله وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز "وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"[١٧٤].

إن الله سبحانه وتعالى قد يؤجل الحساب إلى الآخرة في معاص كثيرة إلا ظلم الناس فإنه لابد أن يعجل بعذابه في الدنيا حتى يستقيم ميزان الحياة ويعرف الناس نهاية الظالم، ويكون في ذلك عبرة، وعندما يحين وقت القصاص من الظالم حينما تأتي نهايته فإنها لا تكون على يد مؤمن، لأن المؤمن في قلبه رحمة، وهو بطبعه ميال للخير، ميال للعفو، ولكن نهايته تكون على يد من هو أظلم منه ليكون الانتقام بشعا وتكون العبرة مؤثرة، وبعد أن حدد الله سبحانه وتعالى مهمة من أتاه الملك بالنسبة للظالمين والمفسدين في الأرض قال إن هذا العذاب الدنيوي ليس نهاية العذاب بالنسبة للظالم بل هناك عذاب

---

[١٧٣] سورة الكهف - لفضيلة الإمام الراحل محمد متولي الشعراوي

[١٧٤] **الأنعام ١٢٩**

ينتظره في الآخرة، مصداقا لقوله تعالى: "قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً" [١٧٥]
أما بالنسبة للمحسنين المصلحين في الأرض فيقول تبارك وتعالى: "وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً"[١٧٦].
إذا فلابد أن يكون هناك جزاء دنيوي حسن لمن يحسن ويصلح على الأقل نقول له أحسنت، أو أكثر الله من أمثالك أو نجزيه بالحوافز، حتى نشجع من لا يفعل على أن يفعل، إن هذا أيضا موجود في المجتمعات المؤمنة وغير المؤمنة، لأنه واقع لابد أن يكون، أن نعطى المحسن جزاء إحسانه.
إن عدم تطبيق هذه القاعدة يؤدي إلى اختلال ميزان الثواب والعقاب على من أحسن أو على من أساء هو الذي يضيع كل شيء، فبدلا من أن نعطى المحسن، نعطى المنافق والمرابي، والذي يغضب الله ليرضيك، والذي يزيف أو يزور من أجلك، لقد أخذ الإنسان مبدأ وضعه الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى المحسن فأفسده سوء تطبيقه.
إن قصة ذى القرنين تلفتنا إلى أنه من مهام الحاكم الممكن في الأرض أن يضرب على يد المسيء ويثيب المحسن، وأنه إذا لم يفعل ذلك يكون قد خان أمانة الحكم، وهو ما يؤدي إلى إفساد المجتمع، وإلى معاناة الناس أشد المعاناة[١٧٧].

---

[١٧٥] الكهف ٨٧
[١٧٦] الكهف ٨٨
[١٧٧] سورة الكهف - لفضيلة الإمام الراحل محمد متولي الشعراوي

هذا الدرس الأخير في سورة الكهف قوامه قصة ذي القرنين ، ورحلاته الثلاث إلى الشرق وإلى الغرب وإلى الوسط، وبناؤه للسد في وجه يأجوج ومأجوج[١٧٨] .

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين. سألوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته.

وقد سجل السياق القرآني لذي القرنين ثلاث رحلات: واحدة إلى المغرب، وواحدة إلى المشرق، وواحدة إلى مكان بين السدين.. فلنتابع السياق في هذه الرحلات الثلاث .

يبدأ الحديث عن ذي القرنين بشيء عنه :

"إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا"

لقد مكن الله له في الأرض، فأعطاه سلطانا وطيد الدعائم؛ ويسر له أسباب الحكم والفتح. وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع، وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة .

فأتبع سببا . ومضى في وجه مما هو ميسر له، وسلك طريقه إلى الغرب .

حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة، ووجد عندها قوما. قلنا: يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا. قال: أما من ظلم فسوف نعذبه، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا. وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسرا .

ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق. وهو يختلف بالنسبة للمواضع. فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل. وفي

---

[١٧٨] في ظلال القرآن سيد قطب

بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال إذا كان في صحراء مكشوفة على مد البصر.
والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ لمحيط الأطلسي - وكان يسمى بحر الظلمات ويظن أن اليابسة تنتهي عنده - فرأى الشمس تغرب فيه .
والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار. حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ .
وتوجد البرك وكأنها عيون الماء.. فرأى الشمس تغرب هناك و وجدها تغرب في عين حمئة .. ولكن يتعذر علينا تحديد المكان، لأن النص لا يحدده[١٧٩] .
عند هذه الحمئة وجد ذو القرنين قوما: "قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا" .
كيف قال الله هذا القول لذي القرنين؟ أكان ذلك وحيا إليه أم إنه حكاية حال. إذ سلطه الله على القوم، وترك له التصرف في أمرهم فكأنما قيل له: دونك وإياهم. فإما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا؟ كلا القولين ممكن، ولا مانع من فهم النص على هذا الوجه أو ذاك. والمهم أن ذا القرنين أعلن دستوره في معاملة البلاد المفتوحة، التي دان له أهلها وسلطه الله عليها .

"قال أما من ظلم فسوف نعذبه، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا. وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسرا".
أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذابا فظيعا "نكرا" لا نظير له

---

[١٧٩] في ظلال القرآن سيد قطب

فيما يعرفه البشر، أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن، والمعاملة الطيبة، والتكريم والمعونة والتيسير .
وهذا هو دستور الحكم الصالح. فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم، والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء، وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسنا، ومكانا كريما وعونا وتيسيرا؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج.
أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.
ثم عاد ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق، ممكنا له في الأرض، ميسرة له الأسباب :
"ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا".
وما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها، فالمقصود هو مطلعها من الأفق الشرقي في عين الرائي، والقرآن لم يحدد المكان، ولكنه وصف طبيعته وحال القوم الذين وجدهم ذو القرنين هناك: "حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا"، أي إنها أرض مكشوفة، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار، فالشمس تطلع على القوم فيها حين تطلع بلا ساتر، وهذا الوصف ينطبق على الصحاري والسهوب الواسعة، فهو لا يحدد مكانا بعينه، وكل ما نرجحه أن هذا المكان كان في أقصى الشرق حيث يجد الرائي أن الشمس تطلع على هذه الأرض المستوية المكشوفة، وقد

يكون ذلك على شاطئ إفريقية الشرقي، وهناك احتمال لأن يكون المقصود بقوله: "لم نجعل لهم من دونها سترا" أنهم قوم عراة الأجسام لم يجعل لهم سترا من الشمس[١٨٠].
ولقد أعلن ذو القرنين من قبل دستوره في الحكم، فلم يتكرر بيانه هنا، ولا تصرفه في رحلة المشرق لأنه معروف من قبل، وقد علم الله كل ما لديه من أفكار واتجاهات.
ونقف هنا وقفة قصيرة أمام ظاهرة التناسق الفني في العرض، فإن المشهد الذي يعرضه السياق هو مشهد مكشوف في الطبيعة: الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر، وكذلك ضمير ذي القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله، وكذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي ضمير ذي القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة.
ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين "بين السدين" ولا ما هما هذان السدان، كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين، أو بين سدين صناعيين. تفصلهما فجوة أو ممر، فوجد هنالك قوما متخلفين: "لا يكادون يفقهون قولا".
وعندما وجدوه فاتحا قويا، وتوسموا فيه القدرة والصلاح، عرضوا عليه أن يقيم لهم سدا في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين، ويغيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون في أرضهم فسادا؛ ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم، وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم .
وتبعا للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الأرض فقد رد عليهم عرضهم الذي عرضوه

---

[١٨٠] في ظلال القرآن سيد قطب

من المال؛ وتطوع بإقامة السد؛ ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين؛ فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية: "فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما آتوني زبر الحديد" .. فجمعوا له قطع الحديد، وكومها في الفتحة بين الحاجزين، فأصبحا [ص: ٢٢٩٣] كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما، "حتى إذا ساوى بين الصدفين" وأصبح الركام بمساواة القمتين "قال انفخوا" على النار لتسخين الحديد "حتى إذا جعله نارا" كله لشدة توهجه واحمراره "قال: آتوني أفرغ عليه قطرا" أي نحاسا مذابا يتخلل الحديد، ويختلط به فيزيده صلابة.

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسجله في كتابه الخالد سبقا للعلم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله .

بذلك التحم الحاجزان، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج "فما اسطاعوا أن يظهروه" ويتسوروه "وما استطاعوا له نقبا" فينفذوا منه، وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين، فأمنوا واطمأنوا.

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به، فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم. ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه، وتبرأ من قوته إلى قوة الله، وفوض إليه الأمر، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحا أجرد مستويا .

"قال هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء. وكان وعد ربي حقا"

وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين، النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛ فيجتاح الأرض شرقا وغربا؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه.. إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق، ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله[١٨١].

أسباب نزول الآية

روى أن مشركى قريش ذهبوا إلى المدينة يسألون اليهود عن نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال لهم اليهود: سلوه عن ثلاثة فإن أجابكم عنها فهو نبى وإن لم يجبكم فهو ملك من الملوك فقالوا سلوه عن رجل طواف فى الأرض، وعن فتية ما يدرى ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف فأوضحت من هم أهل الكهف وما خبرهم ثم انتقلت لتتحدث عن ذى القرنين الملك الطواف فى الأرض الذى ملك الفرس.

---

[١٨١] في ظلال القرآن سيد قطب

عن ذى القرنين

قيل أنه سمى بهذا الاسم "ذى القرنين" لأنه بلغ المشارق والمغارب حيث يطلع قرن الشمس ويغرب وقد ذكرت الآيات أن الله سبحانه وتعالى أعطاه ملكاً عظيما ممكنّا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصر، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم وآتاه الله من كل شئ علما بمنازل الأرض وأعلامها ولغاتها، ويسر له الطرق والوسائل التى يفتح بها الأقاليم والبلاد ويكسر الأعداء ويكبت ملوك الأرض.

السؤال الخامس عشر

- الجبال -

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً"

(سورة طه ١٠٥- ١٠٧)

ذكرت الجبال فى القرآن الكريم ثلاثا وثلاين مرة، ووصفت فيه بـ "الأوتاد" إذ إن قسماً منها يغرق في طبقة القشرة الأرضية ما يجعلها تعمل على تثبيت القشرة الأرضية وتمنعها من الاضطراب والميلان، ورغم كل هذه الصلابة للجبال وشموخها وعظمة ارتفاعها لا تستطيع احتمال أهوال يوم القيامة، بل لو كان هناك أعظم من الجبال يومها لنسفها الله نسفاً لتكون يوم القيامة أرضاً مستوية.

وبعد أن ذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام بالتفصيل "كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق" أى كما قصصنا عليك يا محمد صلى الله عليه وسلم خبر موسى مع فرعون وما فيه من الأنباء الغريبة، وكذلك نقص عليك أخبار الأمم السابقة، أخبرنا سبحانه عن حال الجبال المرتفعة عظيمة الشأن يوم القيامة وأنه جل شأنه سيفتتها كالرمل ويرسل عليها الرياح فتطيرها.

ويسألك الكفار عن مصير الجبال وحالها يوم القيامة ، فأجبهم وقل لهم إن ربي سوف يصيرها هباء منبثا ويفتتها كالرمال، ثم يرسل عليها الرياح فيطيّرها، ويزيلها من على وجه الأرض، فيجعل الله الأرض مستوية منبسطة ملساء، لا يُشاهد الإنسان فيها ارتفاعا ولا انخفاضا بل على هيئة واحدة

وفي يوم القيامة، ذلك اليوم العصيب يسرع الناس إلى صوت الداعي لموقف الحشر، ليس لهم محيد ولا مفر من ذلك، وصمتت أصوات الخلائق خضوعا ورهبة من الرحمن، فلا تسمع إلا صوتا خفيا[١٨٢].

وورد في تفسير القرطبي، أن قوله تعالى: "ويسألونك عن الجبال" أي عن حال الجبال يوم القيامة، فقل جاء هذا بفاء وكل سؤال في القرآن "قل" بغير فاء إلا هذا، لأن المعنى إن سألوك عن الجبال "فقل"، فتضمن الكلام معنى الشرط وقد علم الله أنهم يسألونه عنها، فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير (فاء)، وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد؛ فتفهمه[١٨٣].

قال ابن الأعرابي: يقلعها قلعا من أصولها ثم يصيرها رملا يسيل سيلا، ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا قال: ولا يكون العهن من الصوف إلا المصبوغ، ثم كالهباء المنثور. "فيذرها" أي يذر مواضعها "قاعا صفصفا" والقاع الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء؛، لا ترى فيها عوجا

---

[١٨٢] التفسير الميسر الدكتور عائض القرني

[١٨٣] الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي

ولا انخفاضا ولا ارتفاعا وهذا مصداقا لقوله تعالى: "ويذرها قاعا صفصفا"، وفى ذلك اليوم العظيم يتبع الناس داعى الله الذى يدعوهم لأرض المحشر فيأتونه سراعا لا يزيغون عنه ولا ينحرفون. ويحشر المجرمين إلى أرض المحشر زرق العيون سود الوجوه.

"فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا"

فيذرها أي يذر مواضعها قاعا صفصفا القاع الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء.

"لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا"

لا ترى في موضع الصفة، "فيها عوجا" قال ابن الأعرابي : العوج التعوج في الفجاج، والأمت النبك، وهي التلال الصغار.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)

قوله تعالى : "يومئذ يتبعون الداعي" يريد إسرافيل - عليه السلام - إذا نفخ في الصور لا عوج له أي لا معدل لهم عنه ؛ أي عن دعائه لا يزيغون ولا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون عنه . وعلى هذا أكثر العلماء . وقيل : لا عوج له أي لدعائه . وقيل : يتبعون الداعي اتباعا لا عوج له ؛ فالمصدر مضمر ؛ والمعنى : يتبعون صوت الداعي للمحشر ؛ نظيره : واستمع يوم يناد المنادي من مكان قريب الآية . وسيأتي . وخشعت الأصوات أي ذلت وسكنت ؛ عن ابن عباس قال : لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع ، فكل لسان ساكت هناك للهيبة . للرحمن أي من أجله . فلا تسمع إلا همسا الهمس الصوت الخفي ؛ قاله مجاهد . عن ابن عباس : الحس الخفي . الحسن وابن جريج : هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر ؛

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩)

قوله تعالى : يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن من في موضع نصب على الاستثناء الخارج من الأول ؛ أي لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن . ورضي له قولا أي رضي قوله في الشفاعة . وقيل : المعنى ، أي إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له ، وكان له قول يرضى . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله.

ويتجلى المشهد الرهيب يوم القيامة فإذا بالجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفاً؛ وإذا هي قاع بعد ارتفاع، قاع صفصف خال من كل نتوء ومن كل اعوجاج ، فلقد سويت الأرض فلا علو فيها ولا انخفاض، وكأنما تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية؛ وتنصت الجموع المحشودة، وتخفت كل حركة وكل نأمة، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين، لا يتلفتون ولا يتخلفون وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون ويعبر عن استسلامهم بأنهم "يتبعون الداعي لا عوج له" تنسيقاً لمشهد القلوب والأجسام مع مشهد الجبال التي لا عوج فيها ولا نتوء![١٨٤].

ثم يخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر: "وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا وعنت الوجوه للحي القيوم"، وهكذا يخيم الجلال على الموقف كله، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع، فالكلام همس، والسؤال تخافت، والخشوع ضاف، والوجوه عانية، وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله، والعلم كله لله، وهم لا يحيطون به علماً، والظالمون

---

[١٨٤] في ظلال القرآن – سيّد قطب

يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة، والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلماً في الحساب ولا هضماً لما عملوا من صالحات.
لقد أخبرنا الله جل وعلا عن الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه، فبيّن أنه ينزعها من أماكنها ويحملها فيدكها دكا[١٨٥]، وذلك في قوله: "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً"[١٨٦].
ثم بين أنه يسيّرها في الهواء بين السماء والأرض، وذلك في قوله:
"وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ"[١٨٧].
وقوله: "وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً"[١٨٨].
وقوله: "وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ"[١٨٩].
وقوله تعالى: "وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً"[١٩٠].
وقوله تعالى: "يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً"[١٩١].

---

[١٨٥] **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الأمين بن محمد بن المختار الجنكي الشنقيطي**
[١٨٦] سورة الحاقة – آية ١٣، ١٤
[١٨٧] سورة النمل – آية ٨٧، ٨٨
[١٨٨] سورة الكهف – ٤٧
[١٨٩] سورة التكوير – آية ٣
[١٩٠] سورة النبأ – آية ٢٠
[١٩١] سورة الطور – آية ٩، ١٠

ثم بين أنه يفتتها ويدكها كقوله: "وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَساً"[١٩٢]
ثم بين أنه يصيرها كالرمل المتهايل ، وكالعهن المنفوش، وذلك في قوله: "يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً"[١٩٣].
وقوله تعالى: "يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ"[١٩٤].

أسباب نزول الآية
أراد كفار قريش الاستفسار من النبى صلى الله عليه وسلم عن مصير الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم استنكارا لها لأنهم لا يؤمنون بها، فجاء رد الله سبحانه وتعالى موجها إلى خاتم رسله بما نصت عليه الآية.
عن ابن جرير الطبرى: أن منكري البعث من قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم، على سبيل الاستهزاء كيف يفعل ربك بالجبال يوم القيامة؟، وقيل: جماعة من ثقي ، وقيل: أناس من المؤمنين فقل ينسفها ربي نسفا يجعلها سبحانه كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها ، والفاء للمسارعة إلى إزالة ما في ذهن السائل من بقاء الجبال بناء على ظن أن ذلك من توابع عدم الحشر ألا ترى أن منكري الحشر يقولون بعدم تبدل هذا النظام المشاهد في الأرض والسماوات أو للمسارعة إلى تحقيق الحق حفظا من أن يتوهم ما يقضي بفساد الاعتقاد .
لما جرى ذكر البعث ووصف ما سينكشف للذين أنكروه من خطئهم في شبهتهم بتعذر إعادة الأجسام بعد تفرق أجزائها

---

[١٩٢] سورة الواقعة – آية ٥
[١٩٣] سورة المزمل – آية ١٤
[١٩٤] سورة المعارج – آية ٨، ٩

ذكرت أيضا شبهة من شبهاتهم كانوا يسألون بها النبي صلى الله عليه وسلم سؤال تعنت لا سؤال استهداء ، فكانوا يحيلون انقضاء هذا العالم ويقولون: فأين تكون هذه الجبال التي نراها. وروي أن رجلا من ثقيف سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وهم أهل جبال لأن موطنهم الطائف وفيه جبل كرى، وسواء كان سؤالهم استهزاء أم استرشادا، فقد أنبأهم الله بمصير الجبال إبطالا لشبهتهم وتعليما للمؤمنين[١٩٥].

[١٩٥] التحرير والتنوير محمد الطاهر ابن عاشور

السؤال السادس عشر

- الساعة –

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا"

(النازعات ٤٢- ٤٦)

تظل الساعة من الغيبيات التى اختص الله سبحانه وتعالى علمها لنفسه، إلا أنه بيّن لنا علاماتها للعبرة والاستعداد لها بصالح الأعمال، وأوضح سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه جاء لينذر ويحذر من يخشى من الناس أهوالها.

وبعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن خلق السماوات والأرض والنعم التى خص بها بنى آدم، وأوضح الطريق لمن أراد الجنة، وخوّف من يبتغون طريق النار، أشار سبحانه إلى هذا السؤال الذى وجهه المشركون إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وورد هذا السؤال عن ميعاد قيام الساعة، فسألوا عن ميعاد مجيئها لا رغبة فى الإيمان ولا حرصا على الوصول إلى

الحق ولكن على عادتهم جاء هذا السؤال إنكارا لمجيئها واستبعادا لوقوعها، فأنزل الله تعالى تلك الآية.
وقد تكرر هذا السؤال منهم أكثر من مرة فى صور متعددة وأوقات مختلفة، وهنا رد الله سبحانه وتعالى عليهم بنفسه، أما فى سورة الأعراف الآية ١٨٧ فجاء نصها:
"يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ".
فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم أن يجيبهم، فجاء الرد عليهم فى صورة استفهام استنكارى توبيخى حيث قال: "فيما أنت من ذكراها"، وأكد أن رسوله صلى الله عليه وسلم علامة كبيرة من علاماتها، ودليل قاطع على قرب قيامها.
والنبى عليه الصلاة والسلام قال : "بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى" أى أنهما مترادفان متصلان، وأنه صلى الله عليه وسلم جاء ليحذر من وقوعها لأنها إن جاءت تأتى بغتة وعندئذ يتحسر الكافر والعاصى ويعض على أنامله لما يعتريه من يأس فى الوصول إلى رحمة الله.

كما أنه صلى الله عليه وسلم بعث ليحذر الناس من هذه الفجأة فأمرهم بسرعة التوبة والهرولة إلى الطاعة، ولكن لا يتأثر بهذا الكلام ولا يعتبر بهذه الموعظة إلا من يخشى الرحمن كما قال سبحانه: "سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى"[١٩٦].

---

[١٩٦] سورة الأعلى – آية ١٠، ١١

وعندما تقوم الساعة يدرك الجاحدون لها أنهم لم يلبثوا فى هذه الدنيا إلا جزءا من اليوم عبارة عن وقت العشى أو وقت الضحى "كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها".
والمعنى أنهم يسألونك عنها، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها، ثم قال: "إلى ربك منتهاها" أي: منتهى علمها لم يؤت علمها أحدا من خلقه، وقيل: "فيم" إنكار لسؤالهم، أي: فيم هذا السؤال، ثم قيل: "أنت من ذكراها"، أي: إرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث في نسم الساعة ذكر من ذكرها وعلامة من علاماتها، فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها، ولا معنى لسؤالهم عنها[١٩٧].
"إنما أنت منذر من يخشاها" أي: لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يكون من إنذارك لطفا له في الخشية منها، كأنهم لم يلبثوا في الدنيا، وقيل: في القبور إلا عشية أو ضحاها.
كان أهل العناد من قريش يعنتون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسؤال عن وقت الساعة ومتى يقيمها الله، فكان النبي يردد في نفسه ما يقولون ويتمنى لو أمكن الجواب عما يسألون، كما هو شأن الحريص على الهداية، الجاهد في الإقناع[١٩٨].
فنهاه الله تعالى عن تمنى ما لا يرجى، وجاء بالنهي في صورة الاستفهام الإنكارى حيث قال: فيم أنت من ذكراها؟ أي ما هذه

---

[١٩٧] تفسير الكشاف - أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري

[١٩٨] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ص٣٢٢ ج٥

الذكرى الدائمة؟ لست في شيء منها، أي لا حاجة لك بها، فإن علم ذلك ينتهى إلى ربك.
وإنما شأنك أنت أن تنذر من يخافها، فتنبهه من غفلته حتى يستعد لما يلقاه يومها، أما هؤلاء المعاندون فدعهم فإنهم لا يعقلون ولا تشتغل بالجواب عما يسألون، فإذا جاءت الساعة ذهبت صورة كل زمن مضى من أذهانهم، سواء طال أو قصر، فحسبوا أنهم لم يلبسوا من يوم خلقوا إلى يوم بعثوا إلا عشية أو ضحاها، أي طرفا من أطراف النهار، لا نهارا كاملا، وذلك لمفاجئتها لهم على غير استعداد لتوقعها.
"الساعة" ساعة يبعث الناس وهى يوم القيامة، "أيان مرساها"، أي متى إرسالها، أي إقامتها، ومتى حصولها؟، "فيم أنت"، في أي شيء أنت من مداومة تذكرها، أو في أي شيء من ذكرها لهم، وإخبارهم بوقتها؟، أي لست في شيء من هذا أى ليس من شأنك أن تذكر لهم من خبرها شيئا سوى أنك تنذر من يخافها، و "العشية" طرف النهار من آخره، و "الضحى" طرفه من أوله، وإضافة الضحى إلى ضمر العشية إشارة إلى أن العشية والضحى من يوم واحد، فهم يحسبون أنهم لم يلبثوا إلا بعض يوم واحد، كما قال لم يلبثوا إلى ساعة من نهار، واللبث "الإقامة"[١٩٩].

إن هؤلاء الغافلون عما حولهم، العمي عما يحيط بهم، يسألون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الساعة البعيدة المغيبة في المجهول، كالذي لا يرى ما تحت قدميه ويريد أن يرى ما في الأفق البعيد[٢٠٠].

---

[١٩٩] نفس المصدر ـ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده
[٢٠٠] **في ظلال القرآن ـ سيّد قطب**

لقد كانت عقيدة الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء، تفاجئ المشركين في الجزيرة مفاجأة كاملة، ومع أن هذه العقيدة أصيلة في دين إبراهيم - عليه السلام - وهو جد هؤلاء المشركين وفي دين إسماعيل أبيهم الكريم إلا أنه كان قد طال عليهم الأمد، وبعد ما بينهم وبين أصول الإسلام الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل .
حتى لقد اندثرت عقيدة الآخرة تماما من تصوراتهم فكانت أغرب شيء عليهم وأبعده عن تصورهم. حتى لقد كانوا يعجبون ويعجبون من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنه يحدثهم عن الحياة بعد الموت وعن البعث والنشور والحساب والجزاء كما حكى عنهم القرآن الكريم في السورة الأخرى:
"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي العَذَابِ وَالضَّلاَلِ البَعِيدِ"[٢٠١] .
ولقد علم الله أن أمة من الأمم لا تملك أن تقود البشرية وتشهد عليها - كما هي وظيفة الأمة المسلمة - إلا أن تكون عقيدة الآخرة واضحة لها راسخة في ضميرها.
فتصور الحياة على أنها هذه الفترة المحدودة بحدود هذه الحياة الدنيا، وحدود هذه الأرض الصغيرة، لا يمكن أن ينشئ أمة هذه صفتها وهذه وظيفتها.

إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور، وسعة في النفس، وامتداد في الحياة ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة؛ كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة،

---

[٢٠١] سورة سبأ – ٧، ٨

ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة، عن المضي في التبشير بالخير، وفعل الخير والقيادة إلى الخير، على الرغم من النتائج القريبة، والتضحيات الأليمة، وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة.

والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس " الإنسان "، وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك " الحيوان "، وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة! لذلك كله كان التوكيد شديدا على عقيدة الآخرة في دين الله كله، ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح، حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلا، وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية، تلك القيادة الراشدة التي وعاها التاريخ الإنساني[٢٠٢].

وفي (سورة الأعراف) ننتقل إلى صورة من صور الاستغراب والاستنكار الذي يواجه به المشركون عقيدة الآخرة، تبدو في سؤالهم عن الساعة سؤال الساخر المستنكر المستهتر : "يسألونك عن الساعة أيان مرساها"، إن الساعة غيب، من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فلم يطلع عليه أحدا من خلقه، ولكن المشركين يسألون الرسول عنها، إما سؤال المختبر الممتحن! وإما سؤال المتعجب المستغرب! وإما سؤال المستهين المستهتر!، " أيان مرساها؟ "، أي متى موعدها

---

[٢٠٢] في ظلال القرآن - سيّد قطب

الذي إليه تستقر وترسو؟! والرسول صلى الله عليه وسلم بشر لا يدعي علم الغيب، مأمور أن يكل الغيب إلى صاحبه، وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية، وأنه هو بشر لا يدعي شيئا خارج بشريته ولا يتعدى حدودها، إنما يعلمه ربه ويوحي إليه ما يشاء.

"قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو"

فهو سبحانه مختص بعلمها، وهو لا يكشف عنها إلا في حينها، ولا يكشف غيره عنها، ثم يلفتهم عن السؤال هكذا عن موعدها، إلى الاهتمام بطبيعتها وحقيقتها، وإلى الشعور بهولها وضخامتها، ألا وإن أمرها لعظيم، ألا وإنها لتثقل في السماوات والأرضين، وهي بعد ذلك لا تأتي إلا بغتة والغافلون عنها غافلون.

"ثقلت في السماوات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة"

فأولى أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها والاستعداد قبل أن تأتي بغتة فلا ينفع معها الحذر، ولا تجدي عندها الحيطة، ما لم يأخذوا حذرهم قبلها، وما لم يستعدوا لها، وفي الوقت متسع وفي العمر بقية[٢٠٣].

وما يدري أحد متى تجيء، فأولى أن يبادر اللحظة ويسارع، وألا يضيع بعد ساعة، قد تفجؤه بعدها الساعة! ثم يعجب من أمر هؤلاء الذين يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن الساعة، إنهم لا يدركون طبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ولا يعرفون حقيقة الألوهية، وأدب الرسول في جانب ربه العظيم.

"يسألونك كأنك حفي عنها"

---

[٢٠٣] في ظلال القرآن - سيّد قطب

أي: كأنك دائم السؤال عنها! مكلف أن تكشف عن موعدها! ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسأل ربه علم ما يعلم هو أنه مختص بعلمه.
"قل إنما علمها عند الله"
قد اختص سبحانه به ولم يطلع عليه أحدا من خلقه .
"ولكن أكثر الناس لا يعلمون"
وليس الأمر أمر الساعة وحده، إنما هو أمر الغيب كله فلله وحده علم هذا الغيب، لا يطلع على شيء منه إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء، في الوقت الذي يشاء، لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعا ولا ضرا[٢٠٤].

واعلم أنه تعالى لما بين بالبرهان العقلي إمكان القيامة، ثم أخبر عن وقوعها، ثم ذكر أحوالها العامة، ثم ذكر أحوال الأشقياء والسعداء فيها، قال تعالى : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها).
واعلم أن المشركين كانوا يسمعون إثبات القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة، مثل أنها طامة وصاخة وقارعة، فقالوا على سبيل الاستهزاء : (أيان مرساها) فيحتمل أن يكون ذلك على سبيل الإيهام لأتباعهم أنه لا أصل لذلك، ويحتمل أنهم كانوا يسألون الرسول عن وقت القيامة استعجالا، كقوله: (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) [الشورى : ١٨] ثم في قوله: (مرساها) قولان: أحدهما: متى إرساؤها، أي إقامتها، أرادوا متى يقيمها الله ويوجدها ويكونها، والثاني: (أيان) منتهاها

---

[٢٠٤] في ظلال القرآن - سيّد قطب

ومستقرها، كما أن مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهي إليه [٢٠٥].

ثم إن الله تعالى أجاب عنه بقوله تعالى: (فيم أنت من ذكراها) وفيه وجهان:

الأول: معناه في أي شيء أنت عن تذكر وقتها لهم، وتبين ذلك الزمان المعين لهم، وعن عائشة : " لم يزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية فهو على هذا تعجيب من كثرة ذكره لها، كأنه قيل: في أي شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها، والمعنى أنهم يسألونك عنها، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها، ثم قال تعالى : (إلى ربك منتهاها) أي منتهى علمها لم يؤته أحدا من خلقه.

الوجه الثاني: قال بعضهم: (فيم) إنكار لسؤالهم، أي فيم هذا السؤال، ثم قيل: (أنت من ذكراها) أي أرسلك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل ذكرا من أنواع علاماتها، وواحدا من أقسام أشراطها، فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ووجوب الاستعداد لها، ولا فائدة في سؤالهم عنها .

ثم قال تعالى: (إنما أنت منذر من يخشاها) وفيه مسائل،

المسألة الأولى: معنى الآية أنك إنما بعثت للإنذار، وهذا المعنى لا يتوقف على علمك بوقت قيام القيامة، بل لو أنصفنا لقلنا بأن الإنذار والتخويف إنما يتمان إذا لم يكن العلم بوقت قيام القيامة حاصلا .

---

[٢٠٥] التفسير الكبير الإمام فخر الدين الرازي

وأنه -عليه الصلاة والسلام- منذر للكل إلا أنه خص بمن يخشى، لأنه الذي ينتفع بذلك الإنذار[٢٠٦] .

أسباب نزول الآية

ولما سأل أعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم وناداه بصوت جهوري قائلا: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويحك إن الساعة آتية ، فما أعددت لها؟ " قال : ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ، ولكني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المرء مع من أحب " . فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. وكان صلى الله عليه وسلم إذا سئله أحابه عن شيء لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته[٢٠٧] .

---

[٢٠٦] التفسير الكبير الإمام فخر الدين الرازي

[٢٠٧] تفسير ابن كثير

ـ المصادر ـ

- القرآن الكريم
- الأحاديث النبوية الشريفة
- تفسير الشعراوي
- سورة الكهف ـ لفضيلة الإمام الراحل محمد متولي الشعراوي
- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده الدكتور محمد عمارة
- في ظلال القرآن سيد قطب
- التفسير الميسر الدكتور عائض القرني
- تفسير القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
- علوم القرآن الكريم الدكتور عبدالمنعم النمر
- التفسير الوسيط ـ الإمام الأكبر محمد سيّد طنطاوي
- تفسير المنار محمد رشيد رضا
- نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم محمد الغزالى
- التحرير والتنوير محمد الطاهر ابن عاشور
- التفسير الكبير المسمى البحر المحيط أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف الأندلسي
- التفسير الكبير الإمام فخر الدين الرازي
- تفسير الألوسي دار إحياء التراث العربي
- تفسير الكشاف ـ أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري
- تفسير ابن كثير ـ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الأمين بن محمد بن المختار الجنكي الشنقيطي

الخـــاتمـــــــة

عزيزي القارىء،،،،

بفضل الله وعونه تم إنجاز هذا الكتاب،،

- **حاولت أن أضع بين طياته من العلم الذي ينتفع به، ما يسّر الله لي من التفاسير لكوكبة من صفوة العلماء الذين زخرت بعلمهم الأمة.**

وعملت في هذا الكتاب على تجميع الأسئلة التي وجهت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلّدها المولى عز وجل في كتابه الكريم إلى قيام الساعة، وركّزت على عرض أكثر من تفسير وتصوير بياني للآيات التي تناولت الأسئلة التي وجهت للنبي صلى الله عليه وسلم، سواء من الصحابة رضوان الله عليهم، حتى يتبينوا من أمور دنياهم ومدى اتفاقها مع الدين، وموقف الدين الحنيف من العادات الجاهلية التي كانوا يمارسونها قبل أن يضيء الإيمان قلوبهم ويُنير طريقهم، أو بعض الأسئلة التي وجهها الكفار واليهود للنبي صلى الله عليه وسلم، على سبيل التعجيز أو الاستهزاء.

ووضحت شرح وتفسير العلماء الأجلاء للإجابات التي أنزلها الحق تبارك وتعالى على قلب نبيه الخاتم صلى الله عليه وسلم، وذكرت الروايات التي تحدثت عن أسباب نزول تلك الآيات. وأسأل المولى عز وجلّ أن يكون هذا العمل خالصا لوجه الكريم، وأن يشملني برضاه ورحمته، ويرزقني أجره..

فما أصبت فمن الله وما أخطأت فمن نفسي والشيطان.
وكلي أمل في أن أكون قد وفقت في تبسيط المعلومة وتوصيل المعنى الصحيح بطريقة سهلة إلى ذهن القارىء الكريم، الذي يشرفني ويسعدني أن يحتفظ بكتابي هذا ضمن مكتبته الإسلامية.

شكر وتقدير:-

أتقدم بخالص شكرى إلى "منصة كتبنا" التي أتاحت لى الفرصة لإصدار باكورة أعمالي، ومنحتني شرف طباعة هذا العمل بنظام "الطباعة حسب الطلب"، بعد أن وفقني الله بعونه، بالفوز في المسابقة التي أقامتها لترشيح ثلاثة كُتاب وثلاثة كتب، وحصلت على ثاني أعلى تصويت بها.

*****

كما أقدم التحية احتراما واعتزازا إلى "المكتبة العامة بجريدة الأهرام"، وأخص بالذكر الأستاذة الفاضلة هالة يوسف، والأستاذة الفاضلة رضا السداوي والزميلة الأستاذة عزة محمد عبدالحميد، وأمل محمد أبو العلا لما قدموه لي من مراجع ومصادر استعنت بها في إتمام هذا العمل.

والله من وراء القصد،،،

الفهرس :-

الإهداء : ٤
المقدمة :٥

السؤال الأول	مناجاه العباد لربهم	٨
السؤال الثانى	الأهلة	١٦
السؤال الثالث	الشهر الحرام	٢٧
السؤال الرابع	أوجه الإنفاق	٤٠
السؤال الخامس	الخمر والميسر	٥٣
السؤال السادس	مقدار الإنفاق	٦٥
السؤال السابع	اليتامى	٧٦
السؤال الثامن	المحيض	٨٦
السؤال التاسع	النساء	٩٧
السؤال العاشر	الكلالة	١٠٨
السؤال الحادى عشر	ذى القرنين	١١٦
السؤال الثانى عشر	الإنفال(غنائم الحرب)	١٢٧
السؤال الثالث عشر	الروح	١٣٦
السؤال الرابع عشر	ذى القرنين	١٤١
السؤال الخامس عشر	الجبال	١٥٧
السؤال السادس عشر	الساعة	١٦٤

المصادر: ١٧٤
الخاتمة: ١٧٥
شكر وتقدير: ١٧٧

رسالة ..

إلى كل إنسان على هذا الكوكب الافتراضى .. كن فى الحياة إنسان ..وصل رسالة طيبة للناس وانشر بينهما الخير والحب والسلام ..كن أنت فقط ولا تحاول أن تكون غيرك ..اصنع لنفسك عالم يليق بك .. إزرع داخلك الثقه والطموح والتفاؤل والرضا وحب الله والذات والوطن .

" الناشر "

للتواصل مع الدار :

www.facebook.com/dar.cleopatra

Gmail : dar.cleopatra@gmail.com

للاتصال:

01019983371/01125574129/0225244534